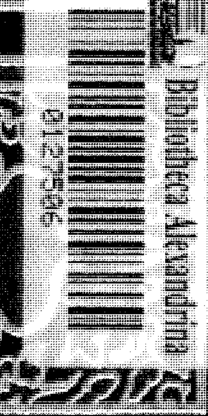
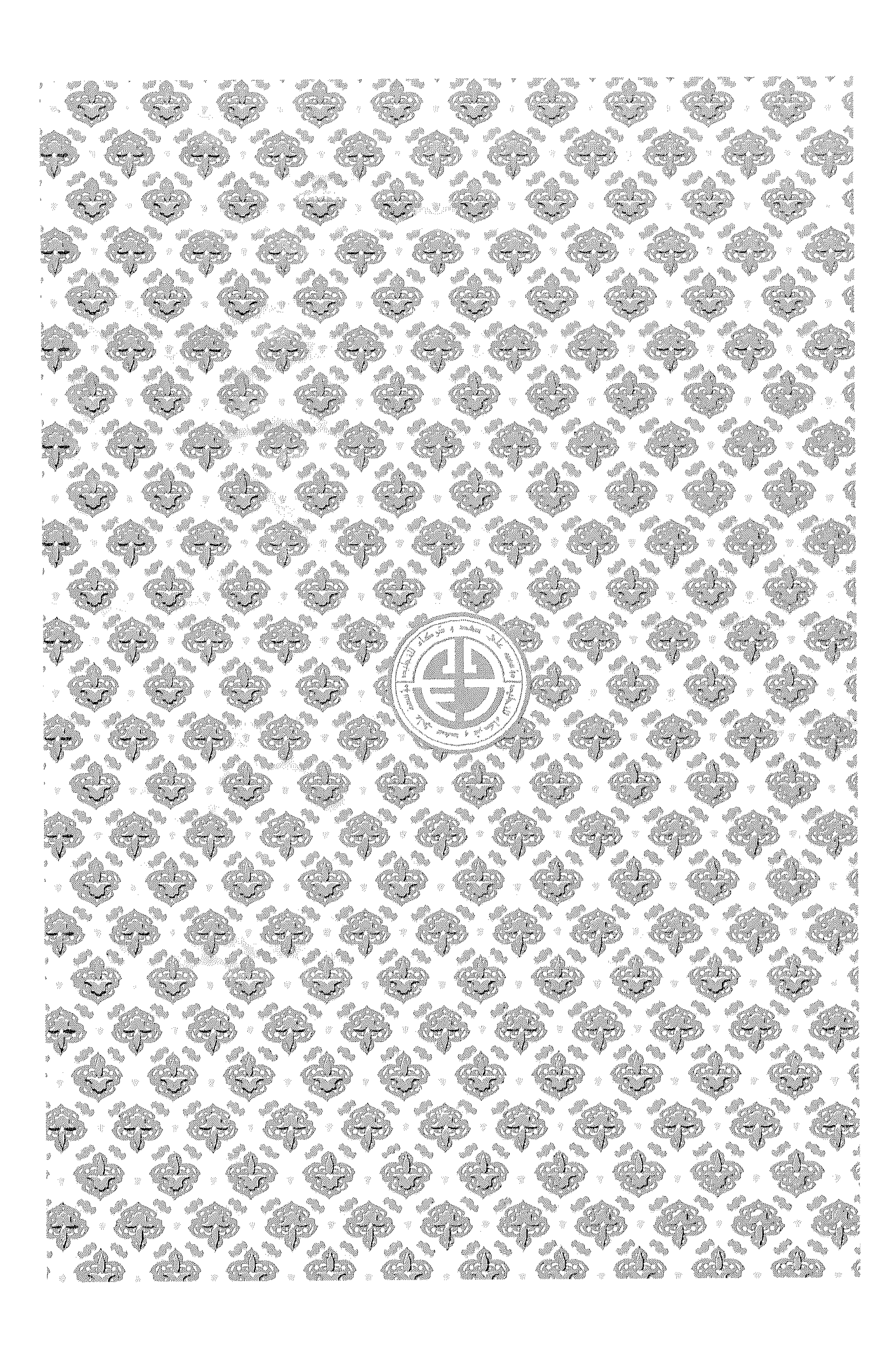
قصة وتاريخ الحضارات العربية

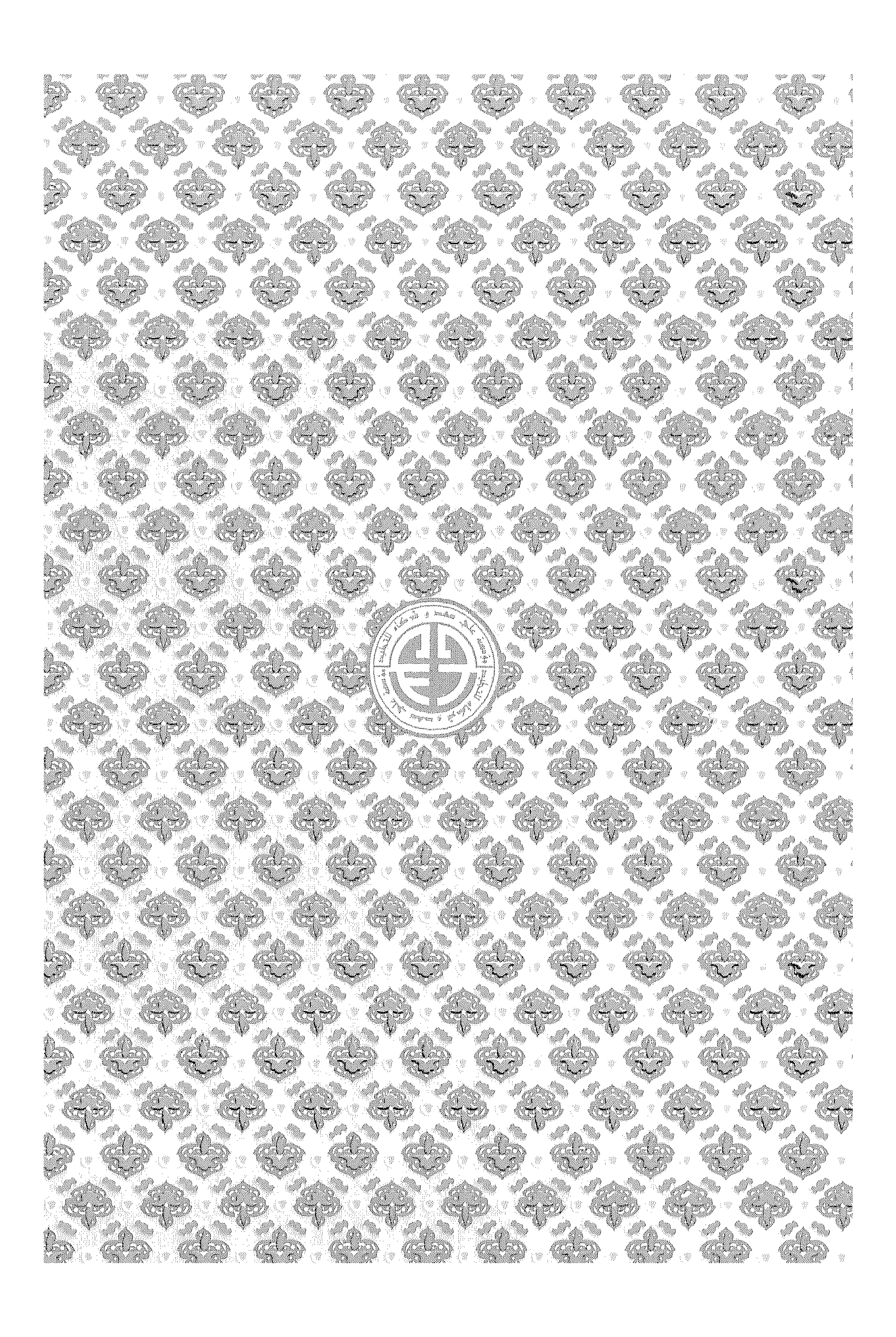
بين الامس واليوم

القبائل العربية
موريتانيا
الصومال
جيبوتي









قصة
و
تاريخ
الحضارات العربية

٢٣ _ ٢٤

قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

٢٣ ـ ٢٤

تاريخية ـ جغرافية ـ حضارية وادبية

القبائل العربية
موريتانيا
الصومال
جيبوتي

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391

القسم الأول

القبائل العربية

عاطف عيد

تمهيد

إن الحديث عن تاريخ القبائل منذ أقدم العصور وحتى بداية سيطرة الأتراك العثمانيين هو أمر صعب وشائك، فعلى الرغم من أن العديد من المؤرخين وكتّاب الأنساب قد تناولوه في مختلف حقباته ومراحله، تبقى بعض الأمور غامضة أو غير دقيقة. لأنك هنا تدرس تاريخ جماعات يغور بعيداً في الزمن، جماعات تكونت وتمازجت، عاشت ردحاً من الزمن في مناطق ونقاط جغرافية لتعود تتركها نحو مناطقَ جديدة وأقاليمَ أخرى.

هذه الوقائع يجب أخذها في الاعتبار عند البدء بقراءة الموضوع، والتحسب إلى أن «الأصل الصافي» لا وجود له واقعياً لأسباب وعواملَ لا مجال لذكرها الآن، وليس من قبيلة استطاعت المحافظة على أعراقها بعيداً عن الامتزاج والاختلاط لا في الأزمان البعيدة أو القريبة.

إذاً، الاتصال كان يحصل، سواء بشكل كيفي وطوعي أو بأشكال سلبية وقسرية، ويترك آثاره ونتائجه، العضوية والبيولوجية، والثقافية والعقلية، وكذلك الاجتماعية والاقتصادية.

وسوف نحاول التزام جانب العلم بعد التدقيق في كل ما تركه العلماء من كتب وأبحاث ومقالات، وبعد الرجوع إلى المصادر والمراجع التي ناقشت وحللت، أكدت وأضحدت، آملين في أن نتوصل إلى توضيح الصورة في أذهان طلاب العلم والمعرفة، سائلين القدير أن يهدينا الطريق القويم.

الفصل الأول

جغرافية الشرق

الجغرافية وإطارها العام في بلاد الشام

الإطـار الجـغرافـي

تشتمل المنطقة التي نحن بصددها أراضٍ ومساحات جغرافية تمتد من الجزيرة العربية وصحاريها إلى بلاد الشام وهلالها الخصيب، فبلاد الرافدين والجبال المحيطة بها، والتي شكلت منذ العصور القديمة مسرحاً رحباً لهجرات كبيرة وتنقلات كانت لا تهدأ، وكذلك حروب وغزوات عديدة.

هذا بالإضافة إلى أن تنوع المناخ وتنوع الغطاء النباتي أو المائي يؤدي إلى بروز جملة عوامل وطبائع لا تلبث أن تضيف إليها تنوع الأديان والمذاهب فهنا، وبعد الديانات الوثنية، عرف الناس الديانات الثلاث السماوية، وهي بحسب تسلسلها الزمني اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

فلكل ديانة من هذه الديانات الثلاث أتباع، ولكلّ منها مذاهب تتفرع من البنية الكبيرة.

فهناك قيم تشترك فيها هذه الديانات، وأخرى تتفرد بها وتتمايز، هناك مراحل تلاقت خلالها وتحابت أو تحالفت، وهناك مراحل أخرى انعزلت أو اعتزلت، تخاصمت، تباعدت وافترقت.

وإذا أردنا أن ندرس المعطيات الجغرافية لاستطعنا تقسيم ذلك إلى ثلاث مناطق، تسهيلاً للبحث، مع التنويه أن لا خلفية سياسية أو عقائدية لهذا التقسيم المستند إلى ركائزَ جغرافية بحتة.

أ ـ الهلال الخصيب

تشمل هذه المنطقة التي تمتد على شكل هلال مناطق واسعة تمتد من

جبال طوروس إلى جبال زغاروس التي تفصلها عن إيران، ثم تقف عند حدود الصحراء العربية بعد أن تنعطف بموازاة الخليج، ثم تمتد بموازاة البحر الأحمر على امتداد قناة السويس وتنبسط أمامها من جهة الغرب مياه البحر الأبيض المتوسط. هذه المنطقة خصبة التربة، غزيرة المياه، متنوعة الأقاليم التي تتدرج من القمم والجبال العالية بسلاسلها الممتدة على كامل أنحاء الرقعة، إلى السهول الساحلية بين الإسكندرون وفلسطين، إلى البوادي والأنجاد الجافة، كما في بلاد الشام.

يقول الدكتور معين حداد في كتابه «الشرق الأوسط دراسة جيوبوليتكية» بأن تعبيد الهلال الخصيب قد صاغه أستاذ في جامعة شيكاغو، وباحث في التاريخ القديم، ومنقب عن الآثار المصرية والشرقية، هو جيمس بريستد. ولقد زار بريستد مصر وعاش فيها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وجال على المناطق المجاورة، ووضع مؤلفات نتجت عن دراساته الميدانية وتناولت تاريخ مصر والشرق القديم.

ولا يختلف تحديد برستد اختلافاً جوهرياً عن التحديد الذي ذكرناه، وإنما هو يضيف إليه منطقة وادي النيل بالرغم من الفاصل الذي تشكله صحراء سيناء بينهما، فيتوسط إذ ذاك حزاماً من الجفاف يمتد عبر قارتي أفريقيا وآسيا من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي ويتألف من الصحراء الكبرى والصحراء العربية.

أما مؤسس الحزب القومي الاجتماعي، أنطون سعادة، فيضيف إلى التحديد جزيرة قبرص ويستثني وادي النيل، بعد أن يمر بمحاذاته.

المهم أن محصلة الأمور شكلت نسيجاً اجتماعياً واقتصادياً متواصلاً على مدى مساحات هذه الأرض الخصبة، التي عرف فيها العمران عبر التاريخ مراحل تمدد وتمدن على حساب الصحراء، ومراحل تقلص كانت تزيد من تجويفة هذا الهلال، الذي يتوزع اليوم على دول العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وتقع بعض أجزائه في تركيا وإيران.

الدكتور فيليب حتي من جهته يعطي تحديداً يكاد يكون نفسه بالنسبة

لامتداد السهل الساحلي على طول المتوسط بين خليج الإسكندرون التي يسميها أبسوس القديمة إلى شبه جزيرة سيناء، ويضيف بأن هذا السهل ينحصر بين البحر والجبل فيتسع في الشمال ويضيق في الجنوب. ويعتبر بأن جبال أمانوس تفصل بين سوريا وآسيا الصغرى مثلما يفصل خليج الإسكندرونة والأمانوس بين سوريا وكيليكيا. ويعتبر حتي أن هذه المناطق كانت منذ أقدم العصور موطناً للاجئين من مختلف العروق والأجناس.

تتألف تربة هذه المنطقة من المواد البركانية السوداء أو الغرينية الحمراء، ومعظم جبالها براكين خامدة، كما تغطي الصخور الكلسية بعض المناطق. أما بادية الشام ففيها سهول صحراوية صخرية تمتد من صحراء العرب الكبرى، وتعبر القسم السوري من المستطيل العربي وتفصل سوريا عن العراق وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي للهلال الخصيب. وتسمى الصحراء التي تحيط بالطرف الشرقي، أي العراق، ببادية الجزيرة أو بادية ما بين النهرين في قسمها الشمالي، وتدعى بادية العراق أو السماوة في قسمها الجنوبي. وسطح القسم الجنوبي الغربي في بادية الشام يضيف الدكتور حتي، وهو الحماد، حجري في بعض أجزائه ورملي في أجزائه الأخرى ويكسوه العشب في الربيع، وتؤلف البادية السورية العراقية مثلثاً كبيراً ترتكز قاعدته على خليج العقبة في الغرب وخليج الكويت في الشرق، بينما تصل قمته في منطقة حلب في الشمال، ويبلغ عرض هذه البادية في أوسع مناطقها ٨٠٠ ميل.

المجاري والأنهار

صحيح أن هذه المنطقة تحوي أنهاراً عظيمة ودائمة الجريان مثل الفرات ودجلة والعاصي والليطاني والأردن، لكن الصحيح أيضاً أن كثيراً من الجداول التي تنساب من بعض المرتفعات الجبلية لا تلبث أن تغيب وتغور في التراب أو الرمال. وسوف نقتصر في حديثنا على الأنهار التي ذكرت أعلاه:

١ ـ نهر الفرات

ينبع نهر الفرات ومعظم روافده من أعالي هضبة أرمينيا شرق الأناضول في الأراضي التركية، التي كانت حتى عام ١٩٣٦ جزءاً من أراضي سوريا الطبيعية.

ويتكون نهر الفرات من مجموعة روافد تزيد على السبعة، حيث يكوّن نهر الفرات صو، وطوله ٤٠٠كلم، ومراد صو وطوله ٦٠٠كلم، نهر الفرات عندما يلتقيان في ملاطية والذي تنحدر المياه إليه عند ذوبان الثلوج. يبلغ طول نهر الفرات ٢٣٣٠كلم منها ٤٤٢كلم في تركيا و ٦٧٥كلم في سوريا و ١٢١٣كلم في العراق وتبلغ مساحة حوض الفرات ٤٤٠٠٠٠كلم[٢].

تجري مياه هذا النهر بانحدار شديد وتكون شلالات عديدة، لذلك دعي بالنهر المجنون. وبعدما يغير اتجاهه من الجنوب الغربي، حيث يدخل إلى مدينة جرابلس السورية، يواجه عند مسكنة هضبة بادية الشام فيتحول مجراه باتجاه الشرق ماراً بالطبقة والرقة، ويرفده بعد مدينة الرقة نهر البليخ، الذي ينبع من عين العروس ثم يتجه جنوب شرق، ماراً بمدينة دير الزور، ويرفده نهر الخابور من هضبة ماردين، ثم يغادر الأراضي السورية إلى العراق عند مدينة البوكمال فيتابع سيره باتجاه شط العرب حيث يصب فيه.

ويتأثر معدل جريان الفرات السنوي بروافده وكمية الأمطار والثلوج، ولذلك يخضع حجم تدفق المياه لتغييرات فصلية وسنوية كبيرة.

٢ ـ نهر دجلة

ينبع نهر دجلة من هضبة الأناضول شرق تركيا ويبلغ طوله ١٧١٨كلم ويكوّن هذا النهر الحدود بين تركيا وسوريا لمسافة ٤٤كلم.

ترفده عدة أنهار أهمها الزاب الكبير والزاب الصغير، والعظيم وديالي، وإيراداته المائية متغيرة بين سنة وأخرى.

إن هذا النهر يذهب بشكل مباشر إلى العراق مكتسباً مزيداً من الدفق

المائي الآتي من جبال زغاروس في إيران ويصب في الخليج بعد توحده مع الفرات لمسافة تقارب المئة كلم.

تبلغ مساحة حوضه حدود ٢٧١٨٤٣كلم[٢] موزعة اليوم بين تركيا ٢١٪ سوريا ٣٪ والعراق ٣١٪ وإيران ٤٨٪.

يشهد تقلبات سنوية شبيهة بما يحدث للفرات.

٣ ـ نهر العاصي

ينبع من نبع اللبوة وعين الرقاد في سهل البقاع وتجري مياهه بانتظام طول العام، يبلغ طوله ٥٧١كلم منها ٣٢٥كلم في سوريا. ترفده مجموعة أودية موسمية يصب في البحر المتوسط عند منطقة الإسكندرون، بعد أن يمر في بحيرة حمص فسهل أنطاكية حيث يرفده نهرا عفرين، وقره صو.

٤ ـ نهر الليطاني

ينبع من نبع العليق جنوب غرب بعلبك في البقاع، تغذيه عدة روافد من السفوح الشرقية لجبال لبنان الغربية، مثل البردوني، وشتورة وقب الياس، وعمّيق. كما تغذيه روافد أخرى، تنبع من السطوح الغربية بجبال لبنان الشرقية، كنهر عنجر، والغزال، وينابيع الفوّار ورأس العين وتشمين. يجري هذا النهر في سهل البقاع الجنوبي بمنحى بطيء، وحينما يصل إلى أقدام بلدة القرعون يدخل وادي عميق، ثم يتجه بانحدار قوي بعد أن يسير عند جسر الخردلي قرب مدينة النبطية نحو الغرب على سفح أقدام قلعة شقيف أرنون ويصب في البحر الأبيض المتوسط على بعد ٧كلم شمالي مدينة صور بعد أن يقطع مسافة ١٦٠كلم.

٥ ـ نهر الأردن

رغم أنه أطول الأنهار الفلسطينية، وأكثرها أهمية، فإن مصادر مياهه تقع خارج الأراضي الفلسطينية، إذ يتكون من الأنهار الثلاثة التالية: نهر الحاصباني الذي ينبع من جبل الشيخ، ونهر الدان وبانياس وهما كذلك

ينحدران من جبل الشيخ قرب بانياس في سوريا ويتجهان جنوباً وينضمان إلى الحاصباني في الأرض الفلسطينية، حيث تشكل هذه الأنهار الثلاثة نهر الأردن.

يدخل الأردن بحيرة الحولة التي جففت ويجري جنوباً حتى يصب في بحيرة طبرية، ذات المياه العذبة. ثم يغادرها باتجاه الجنوب حيث تنضم إليه مياه نهر اليرموك، ونهر الزرقاء، ومياه أودية أخرى تنبع جميعها من الضفة الشرقية للنهر، الواقعة اليوم ضمن أراضي المملكة الأردنية الهاشمية.

الغطاء النباتي

تتوزع الأقاليم النباتية إلى ثلاث مناطق تبدأ في السهول الساحلية والمرتفعات القريبة منها والقليلة العلو. وهنا نجد أصناف النباتات التي تنمو على سواحل المتوسط مثل الخضار الموسمية وأنواع الصنوبريات وشجرة الزيتون التي شكلت لحقبات طويلة عماد الاقتصاد، بالإضافة إلى الكرمة وأنواع الحمضيات. ويسمح المناخ في هذه المنطقة بزراعة أنواع متعددة من الحبوب مثل القمح والفول والعدس والشعير والذرة الصفراء، بالإضافة إلى القرنيات والبطاطا والتبغ، والبصل والثوم والملفوف، والخس واللوبيا وسائر الخضار.

أما المنطقة الجبلية فتسمح بنمو أنواع من السرو والشربين والأرز كما في أعالي جبال لبنان، وبعض أنواع الفاكهة المثمرة التي تقدر أن تتحمل برودة فصل الشتاء مثل الكرز أو التفاح. ومن المفيد التنبه إلى أن صنوف هذه الأشجار قد تتواجد في منطقة وتنعدم في أخرى وذلك تبعاً لمقدار الارتفاع عن سطح البحر، فإذا أخذنا جبال لبنان نجد أن أعلى قممها عند القرنة السوداء تبلغ ٣٠٩٠م بينما تنحدر هذه المرتفعات في سلسلة جبال الجليل داخل فلسطين، لتبلغ مقداراً أقل من ذلك بكثير، حيث تبلغ في جبل الجرمق ١٢٠٨م، ولا تعلو في جبال الكرمل أكثر من ٤٥٠م أما في الخليل فتصل أعلى قممها عند النبي يونس إلى ١٠٢٧م وتبدأ بالانخفاض باتجاه الجنوب حتى تختفي عند صحراء النقب.

أما المنطقة الثالثة فهي حوض التصدع وهضاب سوريا الشرقية حيث تسود الحرارة القوية لفترات طويلة وتؤدي قلة الأمطار إلى وجود سهوب تكاد تنعدم فيها الأشجار، لكنها تفسح بالمجال لنمو بعض الأعشاب، وتتصف الهضاب الواقعة عند أطراف بادية الشام بندرة أشجارها، بينما هضاب شرقي الأردن وحوران، وبسبب تعرضهما للرياح الممطرة، تنبت فيهما المراعي، حيث إن حوران كانت تعتبر في التاريخ القديم مخزن قمح سوريا ومصدر الحبوب. وقد ورد في سفر الملوك الأول ما يلي: «ولم يكونوا يتركون عوزاً لشيء، وكانوا يأتون بالشعير والتبن للخيل ولحيوانات الجر...».

ووجود هذه المناطق النباتية الثلاث ناتج عن التقاء مناخ المتوسط بمنطقة السهوب الآسيوية.

أما في بلاد ما بين النهرين فإن السهل الرسوبي فيها يمثل ثلث مساحة البلاد تقريباً، وهو يمتد بين نهري دجلة والفرات حتى أقصى الجنوب ويخترقه شط العرب حيث تكثر البحيرات والمستنقعات والأهوار في الأجزاء الدنيا من العراق مثل أهوار الحمّار والحويزة وأبي الدبس.

أما المناطق الشمالية من هذا السهل فتكون أرض الجزيرة، أي الأراضي الواقعة بين النهرين عند الأجزاء العليا، بين سفوح الجبال الشرقية وجبل سنجار في الغرب حيث يصل إلى علو ١٤٥٢م، وهذه المنطقة قليلة الارتفاع في الإجمال ولا تزيد عن متوسط مقداره ٣٠٠م تجتازها بعض الأودية. وتليها منطقة المرتفعات الجبلية الشرقية والشمالية الشرقية وهي تمثل ٥٪ فقط من مساحة البلاد، وهي عبارة عن سلاسل جبلية متوازية، ترتفع حتى ٣٥٠٠م تكسوها أشجار مخروطية، بحيث تغطي الغابات حوالي ٧٠٪ من مساحتها، كما تكثر في هضابها وسفوحها المراعي الطبيعية، والأشجار المثمرة.

تبقى الهضاب الصحراوية إلى الغرب وهي منطقة متوسطة الارتفاع بحدود ٥٠٠م تغطي ٦٠٪ من المساحة العامة وهي من الناحية الطبيعية والامتداد جزء من الصحراء المغطاة بالتكوينات الرملية، والحصوية، والممتدة من أواسط بادية الشام باتجاه الأردن فالسعودية. وتنحدر هذه الهضبة شرقاً لتؤلف وادي الفرات.

ب ـ مصر ووادي النيل

بما أن دراستنا لا تقتصر فقط على الهلال الخصيب، بل تشمل أيضاً مناطق وادي النيل والجزيرة العربية، فإننا سنعطي أولاً لمحة عن مميزات مصر الجغرافية والطبيعية والمناخية، ثم نحدد الأمور نفسها لشبه الجزيرة العربية.

تحتل مصر الطرف الشمالي الشرقي لأفريقيا، وتتبعها شبه جزيرة سيناء في غرب آسيا.

سطح مصر جبلي إجمالاً في الجنوب ويسمى مصر العليا أو الصعيد أو الوجه القبلي. وسهلي في الشمال، حيث يسمى مصر السفلى، أو الوجه البحري.

أما من الشرق إلى الغرب فيمكن تقسيم مصر إلى أربع مناطقَ طبيعية هي:

أ ـ شبه جزيرة سيناء: فيها أعلى قمم مصر عند جبل القديسة كاترين ٢٦٤٠م.

ب ـ الصحراء الشرقية، تمتد بين وادي النيل والبحر الأحمر ومن ضمنها صحراء النوبة.

ج ـ وادي النيل والدلتا: يمتد بطول ١٢٠٠كلم وعرض ٣٠كلم، فيه معظم سكان مصر.

د ـ الصحراء الغربية: تشكل جزءاً من الصحراء الأفريقية الكبرى، وتغطي حوالي ٦٨٪ من مساحة مصر متوسط ارتفاعها ٥٠٠م تحصر بينها مجموعة من الواحات والأحواض المنخفضة أهمها المنخفضات الشمالية، بين الفيوم وجغبوب واحة سيسوة، ووادي النطرون.

أما المنخفضات الجنوبية فتضم الواحة الخارجة، والداخلة.

المياه والأنهار

إن قلة أمطار مصر لا تسمح بقيام مجاري مائية مهمة، فباستثناء بعض

مصادر المياه الجوفية في الواحات، لا نجد في مصر أي مجرى مائي سوى نهر النيل الذي يمتد بين الصحراوين الشرقية والغربية، من الجنوب إلى الشمال، بحيث يعتبر العمود الفقري للاقتصاد الزراعي في البلاد. وقد وعى الأقدمون أهميته، فأطلق هيرودتس المؤرخ اليوناني الشهير قوله إن «مصر هبة النيل» أي لولا وجود النيل لما كانت هناك حياة في مصر.

نهر النيل

يبلغ طوله من أبعد منابعه في بحيرة ڤيكتوريا في قلب أفريقيا وحتى مدينة رشيد المصرية على ساحل المتوسط عند الدلتا ٦٧٠٠كلم، ترفده عدة أنهار وروافد أهمها السوباط والنيل الأزرق وعطبرة، وهضبة البحيرات الاستوائية التي تعتبر أكثر المصادر انتظاماً في تزويد النيل بالمياه على مدار السنة، وتأتيه مياه بحر الغزال.

وهو شكل قديماً ويشكل اليوم محور الإقامة والاستيطان داخل مصر.

جغرافية الجزيرة العربية

تمتد شبه الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من قارة آسيا، تحدها بادية الشام من الشمال، والمحيط الهندي من الجنوب، أما شرقاً فتحدها مناطق الخليج الفارسي، وبحر عمان، ومن الغرب البحر الأحمر.

ترتفع لناحية الغرب، ثم تبدأ بالانحدار كلما اتجهنا شرقاً باستثناء سلطنة عُمان، ليس داخل الجزيرة العربية أنهار دائمة الجريان، بل أودية ومجارٍ مائية لا تلبث أن تتوقف مع توقف هطول الأمطار.

تشكل صحراء الربع الخالي الجزء الأكبر من السطح وتنقسم هذه إلى ثلاث مساحات كبيرة هي:

أ ـ بادية السماوة أو النفود، وهي في الشمال سطح رملي فيها القليل من الآبار والعيون الصغيرة، تتخللها كثبان رملية وهي تكاد تكون خالية من أي غطاء نباتي.

لكن منطقة جبل طيء الواقعة جنوب السماوة تتميز بمناخ معتدل، تكثر فيها المدن والقرى وكانت سالفاً مهداً للسكن.

ب ـ صحراء الجنوب وتصل شرقاً حتى الخليج الفارسي، فيها القليل من الأشجار والغابات حيث ينمو شجر النخيل، وفي هذا الجزء مناطق شرقي اليمن وحضرموت، والأحقاف والدهناء والهفوف والقطيف.

ج ـ الحرات: تمتد من شرقي حوران حتى المدينة المنورة، أرضها بركانية سوداء.

أما سطح الجزيرة فيتألف من جزأين:

الحجاز شمالاً واليمن جنوباً.

ويمتد الحجاز بسلاسله الجبلية من العقبة إلى اليمن، ويصل ارتفاع أعلى نقطة في جبل رباع إلى أقصى الشمال ٢٤٤٧م وتتخللها مجموعة من الأودية أهمها وادي العتيق ووادي الحمض.

والحجاز منطقة فقيرة المياه، مناخه معتدل في بعض المناطق السعودية كما في الطائف، وبخلاف ذلك فهو شديد الحرارة. وأغلب سكانه من البدو الرحل وكانوا حتى فترات ليست ببعيدة يشكلون نسبة عالية من مجموع سكانه، وأهميته تكمن في وقوعه على الطريق الذي كانت القوافل تجتازه بين اليمن وبلاد الشمال، وقد رحل إليه اليهود قبل الإسلام وأنشأوا فيه مستعمرات في خيبر والمدينة المنورة.

وفي جنوب الحجاز تقع جبال عسير التي ترتفع فوق ٣٠٠٠م، تتخللها مجموعة أودية أهمها وادي جيزان ووادي فاطمة.

تمتد بعد ذلك اليمن إلى الجنوب من الحجاز لتشمل الزاوية الغربية الجنوبية من شبه الجزيرة العربية وقد عرفت قديماً بالخصب والغنى. ثم إقليم حضرموت وهو كثير الجبال والأودية.

إلى الشرق منها منطقة ظفار ثم لجهة الجنوب الشرقي عُمان.

أما الأجزاء المسماة نجد فهي أصح مناطق الجزيرة ويداخلها بعض الأراضي الصالحة للزراعة.

وبين نجد واليمن تقع العروض التي تصل بين البحرين شرقاً والحجاز غرباً.

يتيمز المناخ بحرارة شديدة خلال معظم فصول السنة، ترتفع خلال النهار لتعود فتنخفض خلال الليل، وهو ما يدخله ضمن المناخ القاري.

وسيطرة هذا المناخ الجاف والصحراوي على القسم الأكبر من مساحة الجزيرة جعل الزراعة ضعيفة وبالتالي انعدام الغطاءات النباتية المهمة باستثناء بعض الواحات التي تسمح بنمو أشجار النخيل.

الفصل الثاني

الهجرات الكبيرة

هجرات القبائل السامية

سفر التكوين

تُرجع المصادر المكتوبة، ومنها التوراة، وجود الإنسان في هذه المنطقة إلى أبناء نوح الثلاثة حيث يعطينا سفر التكوين صورة لذلك فيقول. . . «وكان بنو نوح الذين خرجوا من السفينة ساماً وحاماً ويافت. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومنهم انتشر الناس في الأرض كلها. . .»

وتتابع التوراة في الفصل العاشر من سفر التكوين تقديم لائحة سلالية، للشعوب مجتمعة بحسب قرابتها العنصرية، فبنو يافت ينتشرون في آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وبنو حام في بلاد الجنوب أي مصر والحبشة وجزيرة العرب، وتُضم إليها كنعان، وبين هاتين المنطقتين والمجموعتين، البحر المتوسط والجنوب، يسكن بنو سام: العلاميون، والأشوريون وأجداد العبرانيين.

ولكننا نعلم بالمقابل أن التوراة لا تتكلم عن العبرانيين إلا ابتداءً من دخول هذا الشعب في التاريخ حوالي السنة ١٢٠٠ق.م. لذلك يتعذر علينا حصر أصله وهذا شأن معظم الشعوب القديمة.

وقد سبقت هذه المرحلة حقبة تكوين طويلة تتعدى الثمانية أو التسعة قرون، وهي تكاد تخفى بكليتها عن المؤرخين.

فالرعاة الذين كانوا يتنقلون طوال الألف الثاني ق.م. على حدود شبه صحراء الهلال الخصيب، انتهى بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى الاستقرار، لا بل استطاعوا بغض الأحيان أن يفرضوا سيطرتهم على منطقة تقيم فيها جماعات غيرهم من شبه البدو.

ونستطيع أن نعرف على الأقل مجموعتين اثنتين من هذه الشعوب معرفة خاصة، هما الأموريون الذين استقروا ما بين النهرين وسوريا وفلسطين حوالي السنة ٢٠٠٠ق.م. والأراميون الذين استقروا في سوريا حوالي القرن الثالث عشر ق.م. وتشير وثائق مصر وبلاد الرافدين إلى مجموعات أخرى كثيرة كانت تتسلل دون انقطاع إلى ما بين النهرين وفلسطين ومصر.

الدكتور فيليب حتي يرجع تسميته الساميين إلى سبب لغوي، كون هذا الجنس البشري الذي تدخل ضمنه عدة شعوب تكلم اللغة السامية التي تضم اللغات الأشورية البابلية (الأكادية) والكنعانية أي الفينيقية والأرامية والعربية والحيثية. ولنا أن نضيف إلى ما أورده الدكتور فيليب حتي اللغة السريانية. والقاسم المشترك بين هذه اللغات هو احتواؤها على مرادفات أو عبارات تكاد بعض الأحيان تصل إلى حدود التطابق.

وينهي الدكتور حتي خلاصته بالقول إن مجموعة أساليب وأنماط حياة وتصرفات هذه الجماعات السامية تؤكد أنهم كانوا يشكلون جماعة واحدة قبل أن تفرقها عوامل متعددة وقبل أن تحصل كل لغة على شخصية خاصة تميزها عن الآخرين.

وتتلاقى اليوم نظريات عديدة حول أمر يقول إن الهجرات السامية خرجت من شبه الجزيرة العربية، حيث لم تعد الموارد الطبيعية في تلك الفترات المتأخرة من الزمن كافية لإعالتهم واتجهت نحو بلاد الرافدين القريبة أو ناحية بلاد الشام وفلسطين ولبنان.

وتلتقي هذه مع ما أورده أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام» من أن العرب تشكلوا مع من حولهم من أصل واحد، ثم تحضر من حواليهم وتخلفوا هم، فقد تحضر سكان الفرات، ووادي النيل، وظل العرب تغلب عليهم البداوة لمّا حاصرتهم جبالهم وبحارهم.

ومع مطلع سنة ٣٥٠٠ ق.م. اتجهت هجرة سامية من شبه الجزيرة العربية نحو مناطق الرافدين، حيث وجود المياه يوفر المراعي الخصبة ويضمن الحياة التي يسعى إليها هؤلاء الرعاة. وهناك تفرعت هذه

المجموعات واختلطت مع شعوب أخرى، وأعطت شعباً جديداً هو الشعب الأكادي الذي عرف كذلك باسم الشعب البابلي.

وفي مطلق الأحوال فإن الشعب السومري بنى حضارة عظيمة سوف تؤسس لقيام مدنيات أخرى على أنقاضها، وستكون له مأثرة عظيمة عند اكتشافه للكتابة المسمارية.

وبعد الموجة الأولى هذه، خرجت هجرة ثانية من الصحراء وكانت تنتمي إلى الأموريين الذين نزلوا في نواحي سوريا الشمالية، ومنهم تفرع الكنعانيون الذين سكنوا السهل الساحلي، الممتد من الاسكندرون وحتى جنوب فلسطين. لكن، نلفت النظر هنا إلى تعدد النظريات وتشعبها، فبعض المؤرخين المحتمين بأصل الفينيقيين ومنشئهم قالوا بأن هؤلاء أتوا من بحر أرتيريا، ومن بينهم هيرودوت، بينما يدعي سترابون أن في الخليج الفارسي مدن ومعابد شبيهة بالمدن والمعابد الفينيقية، ويؤكد بليني هذا الادعاء.

ويروي جيتان أن الفينيقيين تركوا موطنهم على أثر زلزال قوي، وانتقلوا بادىء الأمر إلى البحر الميت ربما، ليستقروا فيما بعد على شواطىء المتوسط.

وفي العصور الحديثة اعتمد بعض المؤرخين جزئياً أو كلياً على مثل هذه النظريات متجاهلين المكتشفات الأثرية، فحاول أنسفيلد أن يبرهن أن نشأتهم تنحصر إما بصحراء سيناء أو بمشارف بلاد العرب والمناطق المجاورة لها.

في حين يؤكد فيلون الجبيلي أن الفينيقيين هم من سكان البلاد الأصليين.

وبين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ق.م. أتى الأراميون إلى سوريا المجوفة ونواحي مدينة دمشق ومنطلقهم كان الجزيرة العربية. أما العبرانيون فقد توجهوا نحو الجزء الجنوبي من الهلال الخصيب. وبحدود سنة ٥٠٠ق.م. أتت هجرة جديدة ودائماً من الجزيرة العربية واتخذت من المناطق الشمالية الشرقية مركزاً لبناء مقرات لها، وكانت هذه من القبائل النبطية (الأنباط).

تزامن قدوم العبرانيين مع وفود شعب آخر ينتمي إلى العنصر الهندي - الأوروبي، وهو الشعب الفلسطيني الذي أتى من جزر بحر ايجه مستعملاً طرق البحر والبر وتركز عند سواحل سوريا الجنوبية.

أما توطن الإنسان في مصر فكان سابقاً لهذه الفترات وهجراتها، حيث سكن أول الأمر في الصحراء اللطيفة المناخ يومذاك، ومع التبدلات التي طرأت راح يتجمع في وادي النيل إلى مطلع الألف الرابع عندما كانت مصر تتألف من مملكتين شمالية وجنوبية إلى أن استطاع نارمر توحيد المملكتين في مملكة واحدة حوالي سنة ٣٢٠٠ق.م.

وسوف يدخل عنصر جديد على عملية التمازج هذه في حدود سنة ١٧٥٠ عندما اجتاحتها شعوب تعتبر خليطاً لعناصر أسانية وحورية وحثية، بالإضافة إلى عناصر سامية من الحضر والبدو انضمت إلى الغزاة الأقوياء الذين نشروا نفوذهم ليس على مصر وحدها، إنما كذلك على مناطق سوريا والساحل الفينيقي والفلسطيني، وقد سموا بالملوك الرعاة أو الهكوس، واستعملوا الحصان في جر المركبات الحربية.

هذه الهجرات الواسعة حصلت خلال عهود وأزمنة متباعدة، يفصل الواحد منها عن الآخر حوالي الألف سنة.

الفصل الثالث

العرب
و
الجزيرة العربية

أسس القبائل العربية

لما كانت الروابط التقليدية التي نشأت بين أفراد القبيلة، جعلت التعاطف أو التنابذ يعتمد على معرفة الأقرباء وأولئك الذين لا يمتون بصلة دموية أو عرقية لغيرهم، توجهت جهود المؤرخين العرب وكتّاب النسب إلى معرفة أصول القبائل العربية، فكل قبيلة مثلاً كانت تحافظ على تسلسل نسبها وتحتفظ به وتحاول أن تنقل حكايته من السلف إلى الخلف، وقد ارتكز على عدة أسس نذكر منها:

أ ـ الجذم: أي أساس القبيلة وأول مصدر لها، وهناك إمّا عدنان أو قحطان.

ب ـ الجماعات وهي العناصر البشرية المكونة لها.

ج ـ القبيلة.

د ـ تجمع البطون.

هـ ـ البطون وهي تجمع الأفخاذ.

و ـ الأفخاذ وهي تضم العشائر.

ز ـ العتيرية: وتعود بنسبها وتحدرها إلى أربعة آباء تتعاقب باتصال.

ح ـ الفصيلة: هي الرجل وأهل بيته (اعمام وأبناء عمومة).

ط ـ الرهط: يعني عائلة الرجل المكونة من أبنائه المباشرين.

أما في حالات أخرى فقد أورد بعض النسابين عدداً أقل من هذه الأسس، فالقلقشندي في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» جعل هذه الأسس تقتصر على الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن والفخذ ثم أخيراً الفصيلة دون النزول إلى مستوى الرهط.

من هم العرب

تعني كلمة عرب في التاريخ القديم مرادفاً هو بدو أو بادية، وتقول المصادر اليونانية أن العرب سموا جزيرتهم «عربة» ولكن عندما تحضر هؤلاء الأقوام لم تعد اللفظة تشمل فقط سكان البادية إنما عنت كذلك سكان الحضر الذين تركوا حياة التنقل، في مدن اليمن وحوران والحجاز وانقسموا إثر ذلك إلى بدو وحضر، الأولون منهم سكنوا البادية وتنقلوا بين سهوبها. أما الآخرون فإنهم أقاموا في داخلية المدن.

وقد سكن هؤلاء العرب سكان البادية في شمالي الجزيرة داخل المناطق الصحراوية حيث قسموا إلى قبائل وبطون وعشائر، قبل الإسلام وبعده.

وفي جنوبي الجزيرة نزلوا بين خليج فارس والبحر الأحمر، وسكانه توزعوا بين أمم وقبائل مثل المعنيين والسبئيين.

ويقسم النسابون الشعوب العربية إلى قسمين ويقولون بأن هناك عرب بائدة وعرب باقية.

العرب البائدة هم القبائل التي انطفأت قبل الإسلام، وأما العرب الباقية فهم يقسمون إلى قسمين كبيرين سوف نأتي على ذكرهم تباعاً.

لمحة موجزة عن عرب الجنوب

(البائدة)

المعينيون

يعودون بأصلهم إلى قحطان وفق بعض المصادر، لكن الواقع تؤكد أن هذه القبيلة أقدم بكثير من بني قحطان، حيث ورد ذكرهم في سفر الأخبار الثاني على الشكل التالي:

. . . «وخرج وحارب الفلسطينيين وهدم سور جت وسور يبنة وسور اشدود، وبنى مدناً في أرض أشدود وعند الفلسطينين. ونصره الله على الفلسطينيين والعرب المقيمين في جور بعل (مقام البعل وموقعه غير معروف؟) وعلى المعونيين. وأدى المعونيون جزية إلى عزيا وامتدت سمعته إلى مدخل مصر، لأنه تقوى في الغاية».

يقول جرجي زيدان في كتابه العرب قبل الإسلام: «. . . ويظهر أنهم (أي المعونيين) أقدم من ذلك كثيراً، لأنهم عثروا على أمة بهذا الاسم، ذكرت في أقدم آثار بابل بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ق.م على نصب يحمل نقوشاً مسمارية جاء فيها أن نرام سين حمل على معان (في سيناء) وقهر ملكها معينوم وأنه اقتطع حجارة من جبالها حملها إلى أكاد».

ويفيد بعض المصادر أن هؤلاء هم من سكان مصر الأقدمين «الشاسو» عمالقة مصر الذين استولوا على وادي النيل.

لكن الأثبت تبعاً لمصادر أكثر علمية أن يكونوا من عمالقة العراق ذوي

الأصول البدوية الآرامية والذين هبطوا من أعالي الجزيرة العربية قبل عصر حمورابي، ورحلوا نحو بلاد اليمن في أزمنة متأخرة حيث أقاموا لهم مدنيّة فيها.

سبأ

من قبائل العرب المستعربة، تنتمي إلى قحطان، وقد أقاموا لهم دولة خلال الجيل الثامن قبل الميلاد، ويقال بأنهم قاموا أول أمرهم إلى جانب المعينيين، وخالطوهم كما امتزجوا بغيرهم من القبائل التي كانت تتخذ من الجزيرة العربية موطناً لها. وهناك طائفة من النسابين تعيد أصول آل قحطان إلى الحبشة مستندة إلى قرب المسافات الجغرافية بين اليمن وأثيوبيا، ويفسّر هؤلاء نظريتهم هذه بأن مضيق باب المندب شكل نقطة العبور نحو بلاد اليمن حيث تعربوا، ثم أنشأوا دولتهم، ويمكن أن تكون أصولهم من الشعوب والأعراق السامية.

دولتهم: أسست هذه القبيلة دولة لها كانت تدفع الجزية لسرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ق.م.) وقد تدرجوا في الحكم من إمارة بسيطة إلى ملك واسع. اعتمدت في حياتها على تجارة القوافل، وعرف عنها ميلها نحو السلم والعمران بدل الفتوح والحروب. ومن هذه الناحية نستطيع أن نستنتج أن هذه القبائل التي انتعشت حياتها بسبب مرور التجارة لم ترد أن تهدم سبل تطورها وتقدمها بحروب لا طائل منها.

وقد تسمى ملوك سبأ بعدة أسماء أهمها مكرب سبأ، ملك سبأ، ملك سبأ وريدان، ملك سبأ وريدان وحضرموت وأعرابها في الجبال وتهامة. ويقسم العهد السبئي إلى دورين، الأول منهما يمتد إلى حدود السنة ١١٥ق.م. أما الثاني فهو الذي يحتوي على الفترة اللاحقة من عمر هذه الدولة.

وأهم ملوك الدور الأول:

١ ـ يثعمر.

٢ ـ كرب إيل وثار بن ذمر علي.

٣ ـ كرب إيل بيين.

٤ ـ ذمر علي وثار بن كرب إيل.

وهؤلاء بعض مكارب سبأ.

أما دور ملوك سبأ، فأهم شخصياته ورجالاته في الملك:

١ ـ ذمر علي.

٢ ـ ذرح.

٣ ـ كرب إيل وثار.

٤ ـ بريم أيمن.

ويمكن أن يكون عمر المملكة بلغ حوالي ٧٠٠ سنة انتقلت بعدها إلى عصر حمير.

وقد حدثت الهجرة المعروفة بعد انهيار سد مأرب.

الدولة الحديثة تمتد من ١١٥ ق.م إلى حوالي ٥٢٥م: إنّ الحدث البارز خلال هذا العصر هو انتقال العاصمة إلى ظفار، وتؤكد المصادر أن الحميريين هم أهم فروع السبئيين، وربما أن الحميريين كانوا قد تغلبوا على السبئيين أو اختلطوا بهم فشكلوا نسيجاً واحداً. لكن هذه المرحلة حملت معها تغييراً نوعياً اتسم بميل إلى الحروب بعد الفتوحات الكثيرة التي خاض غمارها ملوكهم ضد الفرس وبلاد النجاشي في الحبشة. ففي حين أننا رأينا أسس السلم ترافق الدور الأول، سوف نلاحظ أن عماد المرحلة الثانية كانت الحروب والفتوح.

وتنتهي دولة حمير بذي نواس بحدود سنة ٥٢٥م. وأشهر رجالها:

علهان نهفان ١١٥ ـ ٨٠ ق.م.

وتار ٥ ق.م ـ ٣٥م.

ياسرانعم ٢٥٠م ـ ٢٧٥م.

أما الطبقة الثانية من هؤلاء الملوك فأشهر وجوهها:

شمر يرعش ٢٧٥م ـ ٣٠٠م.

حسان بن أسعد ٤٢٠م ـ ٤٢٥م.

ذو نواس ٥١٥م ـ ٥٢٥م.

ففي خلال عهد ذي نواس فرض الأحباش سلطتهم على بلاد الحميريين.

الاقيال والأذواء

هم قبائل صغيرة برزت في بعض أنحاء الجزيرة العربية إلى جانب القبائل الكبرى المعروفة، وقد اعترف هؤلاء بسيادة جيرانهم الأقوى منهم ملوك سبأ وحمير، وكان لهم ثروات ونفوذ رغم انتقال السيادة في المرحلة التالية إلى أيدي الأحباش.

قبائل الجبانية والقتابية

تذكر المصادر اليونانية هذه القبائل عندما تتحدث عن المعينيين والسبئيين ومن المؤرخين من يربط أصول هذه القبائل بالمعينيين أو يقول بأنه أحد فروعها أو أفخاذها.

ولم يستطيعوا تكوين دولة إنما كانت لهم قوافل تجارية، وشكلوا قبيلة لها زعيم مثل الأمير يتولى شؤونهم. ويروي بعض الدراسات أن أعمالهم راجت في بلاد الشمال الأفريقي.

أما القتابية فينسبون إلى سبأ ويعتقد بأنهم أقاموا في عقيل قبل أن يغادروها بسبب الضغط الجبئي، حيث اضطروا لمغادرتها باتجاه ثمناء.

قبيلة القريون

قوم من أصول عربية اهتمت بالتجارة بين بلاد الهند وبلاد العرب

موطنهم، ولكنها تجارة قائمة على خوض غمار المحيط الهندي، حيث امتلكوا سفناً كبيرة تنقلت بين الموانىء القائمة على شواطىء هذا اليم الكبير المترامي حاملة البضائع والسلع، وكذلك الأموال الكثيرة كمردود لهذه الأعمال التجارية. ويؤكد بعض المستشرقين أن هذا الشعب هو من سكان البحرين القدماء، فيما يرى آخرون أنهم أهل اليمامة ليس إلا. ويعيدون أصلهم بالتالي إلى العمالقة.

العمالقة

عرفوا بهذه التسمية بسبب ضخامة أجسامهم، وتذكر التوراة أشياء كثيرة عنهم ومن النسابين من يقول بأنهم أقاموا في بلاد كنعان، ووادي النيل وفلسطين.

حفورا

تروي بعض المصادر أن مراكزهم انتشرت بأرض السماوة والقصيم، وتضيف هذه المرويات بأنهم توصلوا إلى حضارة ذات شأن.

طسم وجديس

موطنهم في اليمامة ثم جديس ويُقال بأن ملك طسم طغى وتحكم دون أي عدل في أثناء ملكه فثار الناس ضده وقتلوه.

عبد ضخم

هي أولى القبائل التي كتبت بالخط العربي الذي نعرفه.

أميم

انقسم النسابون حول مآلها، حيث يقول البعض منهم بأنها من العرب البائدة والبعض الآخر يدعي أنها من العرب الباقية، وقد هاجر أفرادها إلى بلاد فارس حيث تأسست لهم حضارة مزدهرة.

الفصل الرابع

قحطان وعدنان

مميزات قبائل الجزيرة العربية

إذا كانت معظم هذه الحركة في الهجرات والتنقلات انطلقت من الجزيرة العربية، فهل يعني الأمر أن هذه المنطقة أُفرغت من السكان، أو شهدت ضعفاً سكانياً؟

الحق يقال أن الدراسات تبدو قاصرة عن الإجابة، أو ربما أن المعطيات العلمية والإحصائية لم تكن لتتوفر، وأن احتساب المهاجرين يبقى أمراً تقديرياً غير ذي دقة.

لكن الجزيرة العربية بقيت مأهولة، وغلبت على أحوال سكانها عيشة البداوية والترحل من مكان إلى مكان ومن صقع إلى آخر، لا يرتبطون بالأرض ارتباطاً وثيقاً فهم لا يفلحون ولا يزرعون لسبب بسيط، فالأرض هنا وعناصر المناخ غير صالحة لهذا الأمر.

وقد انقسم هؤلاء البدو إلى قبائل شأن جميع الشعوب القديمة، وكانت القبيلة هي الوحدة التي يبنى عليها النظام الاجتماعي، فشيخ القبيلة يحتكر السلطة والزعامة داخل قبيلته لنفسه، وإليه يحتكم الآخرون في حل مسائل الخلافات على المراعي أو الآبار أو أمور الشرف والأخذ بالثأر.

طبع النزاع المستمر حياة القبائل في ما بينها، فكانت تتحالف في بعض الأحيان وتتناهض في أحيان أخرى تبعاً للمصالح المتفقة أو المتضاربة. بحقيقة الأمر حاول العديد من الباحثين التفتيش عن أصول القبائل وجذورها البعيدة، خاصة بعد ادعاء كثير من المتأخرين تحدرهم أو صلتهم بأنساب معينة لكنهم لم يتوصلوا إلى تحديدات دقيقة. وقيل ذات يوم في هذا السياق: «سئل مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك وقال: من أين يعلم ذلك؟ فقيل له فإلى إسماعيل فأنكر ذلك وقال ومن يخبره به؟».

وهناك عادة عند النسابين بارجاع أصول عرب الشمال إلى نسل إسماعيل بن إبراهيم. ولو دققنا الأمر كما ورد في التوراة نلاحظ أن مولد إسماعيل حصل وفق التالي: «وولدت هاجر لأبرام ابناً، فسمى أبرام ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل». . .

أما عرب الجنوب فينسبون إلى قحطان أو القحطانيين فيما أهل الشمال يحملون اسم العدنانيين. ووجدت فوارق حضارية واجتماعية بين أهل الشمال وأهل الجنوب. فهؤلاء الجنوبيون عاشوا حياة غلبت عليها الطبائع المدنية والحضارية، واشتهرت عبر تاريخهم مملكة سبأ. عكس أهل الشمال الذين لم يعرفوا الحضارة إلا متأخرين، فتابعوا التنقل وعدم الاستقرار ردحاً طويلاً من الزمن. تضاف إلى ذلك فوارق لغوية في لهجاتهم المحكية؛ فأهل الجنوب حملوا تأثيرات حبشية وأكادية، في حين أن لغة الحجاز اتصلت بالعبرية والنبطية. ولا يجوز بوجه من الوجوه إغفال أمر الاتصال والتواصل رغم العوائق الجغرافية والمادية، لأن الأولين ذهبوا باتجاه الآخرين وكذلك فعل الآخرون وكانت لهم اتصالات مع مجاوريهم.

ويورد مؤرخو تلك العصور السحيقة أسباباً متعددة لتفرُّق سكان اليمن وهجرتهم نحو الداخل وإلى سائر أنحاء الجزيرة، وأحد هذه الأسباب انهيار سد مأرب اليمني وأثره في تخريب ما كان يوجد حواليه، وكذلك الجفاف الذي نتج بعد انهياره وعدم الامكانية في استصلاحه. ويعلل آخرون الهجرة بأسباب تتعلق بضعف تجارة القوافل بعد النشاط التجاري الذي قام به الرومان في البحر الأحمر خلال القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد.

إن حدة الطبيعة الجغرافية جعلت العداء بدوره مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين، فالغزوات كثيرة لها مبرراتها كلما تضافرت العوامل الطبيعية لتمنع المطر من الهطول وتجبره على طول الانحباس. نعم، هكذا كانت القبائل تجد نفسها مسيّرة باتجاه الغزو، لا خيار آخر لديها، فإمّا الخروج والعودة بالأسلاب والغنائم أو حتى اقصاء الخصوم وأخذ مكانهم، وإما فإن الخصم سيجد نفسه ملزماً على التنفيذ.

هذا الجو الحذر حتم اتخاذ كل التدابير الآيلة إلى التعامل معه لرد

التحديات العديدة، وهذا العامل النفسي جعل العصبية داخل القبيلة من أقوى الروابط التي يعول عليها لبقاء الجماعة موحدة تسير خلف زعيم واحد ترى فيه قيماً ومثلاً عليا لا تحيد عنها.

وسوف نلاحظ أن هذا التوجه سيبقى ملازماً للعرب بعد ظهور الإسلام، وكون النبي محمد ﷺ ينتمي إلى قريش وبالتالي إلى العدنانيين، فقد جهد القحطانيون إلى نسب ذواتهم لهذه الأصول العدنانية بالقول أن العرب كلهم أبناء لإسماعيل من قحطان وعدنان.

ومن النسابين اليوم من يقسم العرب إلى عرب بائدة وهم القحطانيون وقبائل عاد وثمود وطسم، ويطلقون عليهم كذلك أسماء العرب العرباء أو العاربة، أما العدنانيون فيسمون بالعرب المتعربة. لكنّ آخرين يعطون تقسيماً معاكساً فيدعون بأن عاد وطسم وثمود، أي قحطان، عرب متعربة. أما عدنان فعرب مستعربة بمعنى أنهم يحلون في مرتبة ثالثة في العربية.

قحطان

يرجع نسب اليمنيين جميعاً إلى قحطان الذين تحدر منهم شعبان، كهلان وحمير، وأشهر أقسام كهلان:

١ ـ طيء: وهي من أشهر القبائل العربية وكانت تسكن قبل مجيء الإسلام جبلي أجا وسلمى اللذين يعرفان اليوم بجبل شمّر، حتى أن السريان من سكان سوريا والفرس كانوا يطلقون على القبائل العربية كلها اسم طيء.

٢ ـ همدان ومذحج: قبائل بقيت مقيمة في اليمن، وإلى مذحج ينتسب بنو حارث ومن أبناء مذحج جلد وعنس وسعد العشيرة. وبنو حارث أقاموا في منطقة الطائف.

٣ ـ عاملة وجذام وسكنوا بادية الشام، وسوف يأتي الحديث عن قبيلة بني عاملة في سياق الكتاب.

أما جذام فإليها ينتسب اللخميون الذين أسسوا مملكة الحيرة قرب نهر الفرات، وقبيلة الكنديين التي أقامت في حضرموت.

٤ ـ قبيلة الأزد التي تتفرع إلى قسمين كبيرين، القسم الأول أقام في عُمان وتولى أمورها، فيما القسم الثاني هم الغساسنة الذين أسسوا مملكتهم في مناطق بلاد الشام الشرقية وسوف نتوسع في الحديث عنهم. وكذلك تفرعت على الأزد قبيلة خزاعة التي حكمت مكة قبل بروز قبيلة قريش، ولا نغفل الأوس والخزرج أهل يثرب. ومن بطون الخزرج، بنو النجار، حسان بن ثابت الذي كان شاعر الرسول محمد ﷺ، وبنو مالك الأغر، وبنو عدي. ويمكن تقسيم الأزد وهي القبيلة الثانية المناوئة للخزرج إلى أزدشنوءة وأزد السراة، وأزد عُمان وأزد غسان.

٥ ـ كندة: من أشهرهم الحارث بن عمرو المقصور، وحجر بن الحارث الملك ومن هذه العائلة أو القبيلة الكبيرة تحدر بنو السكون والسكاسك.

٦ ـ بنو الأشعر: ينتسبون إلى نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عريب بن كهلان وهم الأشعريون، والأشعرون والأشاعرة.

٧ ـ خثعم: بعض النسّاب يقولون بأن هذه القبيلة تحدرت من قحطان، وينسبونها إلى عمر بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان. وأماكن نزولهم كانت بين الطائف ونجران.

٨ ـ بارق: ينتسبون إلى عدي بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقاء.

٩ ـ خولان: تحدروا من فكل بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد وكانوا يقيمون بأرض عُرفت باسمهم.

قضاعة

ينتسبون إلى قضاعة بن مالك بن حمير، وآخرون يقولون أنه قضاعة بن عدنان.

أما الفئة الثالثة فتنسبهم إلى قضاعة بن مالك بن عرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير.

لكن القصة لا تنتهي فصولاً عند هذه الحدود، إنما تأخذ اتجاهات متعددة بحيث أن بعض النسابين يقول أن قضاعة هي حذم خاص مثل قحطان وعدنان ولا يرضى هؤلاء بنسبها إلى غيرها، بل يقولون بأنها أصل بذاتها.

أما أهم فروع القضاعة فهي التالية:

١ ـ التنوخيون الذين سكنوا لبنان وبلاد الشام، وينتسبون إلى بني فهم بني تيم الله بن أسد بن دبرة.

٢ ـ بنو كلب: وقد نزلوا كذلك في بعض مناطق بلاد الشام، ومن بطونهم بنو عامر بن بكر بن عوف.

٣ ـ مهرة: سكنوا في سواحل اليمن.

٤ ـ بنو القين بن جسر: ينتسبون إلى النعمان الذي عُرف بالقين وقد ضعفوا آخر أمرهم.

٥ ـ حلوان بن عمران: ومنهم حماطة وضجمم وقد حكموا بلاد الشام قبل أن تحكمها دولة الغساسنة.

٦ ـ جرم: ينتسب إليه ابنه جدة وكانت ديارهم في اليمامة، والبصرة وحضرموت وصنعاء.

٧ ـ بهراء: منهم بنو هنب، ووقاس، وشبيب.

٨ ـ نهد: ينتسبون إلى أسلم بن الحافي بن قضاعة وسكنوا في نجران.

٩ ـ عُذرة: سكنوا في أعالي الحجاز ومن مواقعهم وادي القرى وتبوك. وقد ارتحل قسم منهم ناحية وادي النيل حيث توطنوا في صعيد مصر وبينهم بنو أبير وبنو حُسن، والعذريون الذين ينتسب إليهم جميل بثينة الذي اشتهر بحبه العذري القائم على الوفاء والإخلاص.

١٠ ـ جهينة: سكنوا في وادي غوى وإضم وفيما بعد انتقلوا إلى يثرب.

١١ ـ بلي: ومن فروعها بنو خران وبنو هِنيء.

١٢ ـ الحارث بن سعد: ويقال أن منهم بنو أبير من عذرة؟

دولة كندة

بطن من كهلان ويعودون بأصلهم إلى كهلان، وقد نزحوا منها إلى منطقة حضرموت، حيث أقاموا داخل بلدة تدعى كندة.

وقيل بأنه وراء نزوح الكنديين عن حضرموت العوامل التي خلفتها الحروب الكثيرة التي كادت أن تفني أفراد القبيلة وتنهيهم عن آخرهم. وقد استقرت في اليمن داخل أرض معد، وهناك تولى أموره أحد الرجال من أعمدة القبيلة واسمه مرتع بن معاوية بن ثور وخلفه سلسلة ملوك على التوالي:

١ ـ مرتع بن معاوية بن ثور.

٢ ـ ثور بن مرتع.

٣ ـ معاوية بن ثور.

٤ ـ وهب بن الحارث.

٥ ـ حجر بن عمرو آكل المرار.

٦ ـ عمرو بن حجر بن عمرو آكل المرار.

٧ ـ الحارث بن عمرو بن حجر.

ويروى أن دولة كندة لم تعرف السيادة الذاتية، إنما كانت تابعة لدولة الحميريين.

وخلال مرحلة تولي الحارث بن عمرو هاجم الأحباش اليمن وقضوا على دولة حمير، مما أثر بشكل سلبي على كندة التي تربطها بها علاقات قوية ووثيقة. وأراد الحارث أن يستعين باللخميين القريبين من الأكاسرة الفرس، وراح يتقرب منهم حتى عظم شأنه وأهمل بنو لخم وراحوا يولونه شؤونهم بعد المعارك الكثيرة التي دارت رحاها بين العشائر اللخمية وأرسل بينهم أربعة من أبنائه لتولي تلك العشائر على الوجه التالي:

١ ـ حجر بن الحارث:

تولى بني أسد بن جذيمة وغطفان.

٢ ـ شرحبيل بن الحارث:

تولى بكر بن وائل وبني حنظلة بن مالك.

٣ ـ معدي كرب بن الحارث:

تولى قيس عيلان وطوائف غيرهم.

٤ ـ سلمى بن الحارث:

تولى تغلب والنمر بن قاسط.

وفي آخر الأمر قتل الحارث بعد لجوئه إلى بني كلب، وقد أدى ذلك الحادث إلى إضعاف سلطة الأبناء، وأخذ صاحب الحيرة يعمل على رد الاعتبار لنفسه والانتقام من الطريقة التي تصرف بها الحارث معه.

فبالغ في إرسال الهدايا إلى هؤلاء الأبناء محاولاً ضرب الأسافين بينهم، إلى أن بلغ ما أراده حين وقعت القطيعة بين شرحبيل بن الحارث وأخيه الأكبر سلمى، فتحاربا ودفع شرحبيل حياته ثمناً لتلك الحرب التي تعرف بيوم الكلاب، حيث تقاتل العدنانيون فيما بينهم.

وبعد أن فقه سلمى ما كان خطط له خصمه التجأ إلى بكر وائل التي دانت له وقام المنذر يدعوهم لطاعته، لكنهم رفضوا فوجه إليهم جموعه التي قتلت منهم خلقاً كثيراً بمن فيهم يزيد بن شرحبيل الذي أسر أول الأمر، لكن المنذر عاد فأمر بقتله.

وقد بلغ الدم على جبل اوارة حيث جرت المعركة الحضيض، وأحرقت النساء بالنار. وقد سميت هذه المعركة في تاريخ العرب بيوم أوارة الأول، وانتهت بقتل سلمى وشرحبيل وانهيار ملكهما وإضعاف ملك أخويهما، حجر صاحب بني أسد، ومعدي كرب صاحب قيس عيلان.

وقام بنو أسد بالثورة على حجر وامتنعوا عن دفع الإتاوات، وقام حجر يغريهم بواسطة عشائر بني ربيعة وأباح أموالهم، لكنهم بنهاية الأمر تمكنوا منه وقتلوه. وبعد ذلك تفككت دولة كندة ولم يبق من ملوكها إلا معد يكرب زعيم قيس عيلان، وبعض الأمراء الصغار الذين ليس لهم شأن مهم أمثال:

١ ـ دومة الجندل.

٢ ـ البحرين.

٣ ـ نجران.

٤ ـ غمر ذي كندة.

وقد اختفت هذه الدولة عند ظهور الإسلام، وكان أبرز ملوك هذه المرحلة الأخيرة كل من:

حجر بن عمرو أكل المرار الذي تولى بعده أربعة من خلفائه بينهم الشاعر امرؤ القيس الذي عاصر الحارث بن جبلة ملك الغساسنة، المتوفي سنة ٧٦٩م. وقد ترتبت مراحل خلافتهم على الوجه التالي:

١ ـ حجر بن عمرو آكل المرار، توفي سنة ٤٥٠م.

٢ ـ عمرو بن حجر بن عمرو، توفي سنة ٤٩٠م.

٣ ـ الحارث بن عمرو معاصر ابن ماء السماء، توفي سنة ٥٤٠م.

٤ ـ حجر بن الحارث والد امرىء القيس، توفي سنة ٥٥٠م

٥ ـ امرؤ القيس، توفي سنة ٥٦٠م.

عدنان

عرب الشمال

ينتسب العدنانيون أو عرب الشمال إلى عدنان بن إسماعيل.

وتقول بعض المصادر إن هناك أربعة فروع للعدنانيين وهم مضر وربيعة وإياد وانمار، وإن نزار بن معد بن عدنان نزل مع قومه في منطقة مكة حيث لقّب بابن ربيعة.

مضر: تفرع من مضر قسمان كبيران هما: الياس، وقيس عيلان، وإلى الياس ينتسب كل من أولاده عامر وعمرو وعُمير وأمهم من بني قضاعة وقد تفرع من هذه الأمم، ممن هم أبناء الياس الفروع التالية:

١ ـ غِفار: من عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، ومنهم أبو ذر الغفاري.

٢ ـ خزاعة: من أولاد عُمير، استولوا على مكة ومناطق الظهران.

٣ ـ هذيل: بن عامر وقد نزل مع قبيلته المدينة ومكة وأرض كنانة. وتعد هذه القبيلة من القبائل الكبيرة نسبة لعددها.

٤ ـ قريش: تتحدر قريش من النضر بن كنانة، ويقال بأن قريش بمعناها اللغوي هي جمع المال بمعنى تقريش أي استجماع القروش، ولأن هذه القبيلة التي نزلت أرض مكة عملت في التجارة، خاصة وأن مدينتهم كانت على طريق القوافل التي كانت تتجه نحو البلاد الحيثية، وهي إلى جانب ذلك محطة تأتيها قوافل التجارة للتزود من أسواقها أو مائها في بئر زمزم الشهيرة، وكذلك مكان وجود الكعبة.

أما القوافل فقد كانت منظمة تنظيماً دقيقاً، كي لا تتعرض أثناء سيرها لمخاطر أو متاعب، فالكشافة يسيرون في المقدمة لاستطلاع الطريق وتحسّس أماكن وجود الخطر، والحراس يجانبون القافلة ذات اليمين أو ذات اليسار لدرء الأخطار التي قد تأتي من الجنبات.

وقد روي أن قريش كانت تقوم برحلتين خلال العام، في الشتاء يتوجهون إلى اليمن وخلال الصيف تكون وجهتهم بلاد الشام.

ومن قبيلة قريش تتحدر الفروع التالية:

أ ـ بيت هاشم بن عبد مناف بن قصي الذي تحدر منهم رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب والعباس عم النبي الذي ينتسب إليه الخلفاء العباسيون.

ب ـ عبد شمس بن عبد مناف ومنهم أولاد أمية الأصغر وقد نزلوا في نواحي مكة.

وأمية الأكبر الذي ينتسب إليه عثمان بن عفان وأبو العاصي بن أمية، والحكم بن العاصي والد مروان بن الحكم والد عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان.

ومن أبناء أمية الأكبر، حرب الذي يتحدر منه أبو سفيان والد معاوية، ومعاوية والد يزيد، وإليهم تنسب السلالة الأموية التي حكمت دولة الأمويين.

ج ـ زهرة بن كلاب بن مرة، ومنهم والدة الرسول ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

د ـ تميم بن مرة ومنهم والدة الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ووالده أبو قحافة.

هـ ـ مخزوم: ينتسب إلى يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، ومنهم فاطمة والدة رسول الله ﷺ.

و ـ عدي بن كعب بن لؤي الذي ينتسب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثاني الخلفاء الراشدين.

٥ ـ ضبّة: منازلهم في اليمامة ولم تقم هذه القبيلة بأية تحالفات مع غيرها من القبائل لذلك سميت «جمرة».

٦ ـ الرِّباب: هم أبناء عمومة قبيلة ضبّة وينتسبون إلى عبد مناة بن أُدّ بن طابخة بن الياس. ومن الأبناء: تيم وعدي وعوف وثور وأشيب، وسموا بالرِّباب لأنهم تحالفوا مع أولاد عمهم ضبة بن أد على بني عمهم تميم بن مر.

٧ ـ أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، وإلى أسد تنتسب الأسر التالية:

أ ـ بنو جعدة بن صعب بن أسد.

ب ـ عمرو بن أسد.

ج ـ كهلان بن أسد.

د ـ دودان بن أسد، وإليهم ينتسب بنو سعد الدين وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة.

٨ ـ تميم: ومن أبنائه الحارث وعمرو وزيد مناة، وإليهم تنتسب الفروع التالية:

أ ـ سعد بن زيد مناة.

ب ـ ربيعة بن مالك بن زيد مناة.

ج ـ يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وإلى يربوع تعود الفروع التالية بنسبها:

ثعلبة بن يربوع، والحارث وبنو كليب ورباح.

د ـ مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة وتحدر منه نهشل ومجاشع وعبدالله.

وتحدر من نهشل الأسود بن يعفر.

٩ ـ مزينة: يتحدرون من عمر بن أُدّ بن طابخة بن الياس.

قيس عيلان

ينتسب قيس عيلان إلى مضر بن نزار وهو الفرع الثاني لأسرةِ مضر ويعرف نسبه بالقيسية وأولاد قيس هم خصفة وسعد وعمرو.

ومن أولاد عمر فهم وعدوان.

ومن سعد بن قيس عيلان، أعصر وغطفان، ومن أعصر الفروع التالية:

أ - باهلة وقد نزلوا في اليمامة.

ب - غني في نجد.

ج - الطغاوة ومنهم ثعلبة وعامر ومعاوية أولاد أعصر.

أما غطفان فتحدر منها بنو بغيض بن ريث بن عطفان، أنمار وعبس وذبيان ومن عبس زهير بن جذيمة، وأولاده قيس الذي أشعل حرب داحس والغبراء، والحارث بن زهير وعوف بن زهير والحصين وحراش وجرير.

ومن قبيلة ذبيان الخصم اللدود لعبس:

أ - بنو مرة بن عوف وإليهم ينتسب النابغة الذبياني.

ب - بنو فزارة ومنازلهم في خيبر، ومنهم حذيفة وحمل.

أما فرع خصفة بن قيس عيلان فكان من أولاده بكر بن هوازن ومنه تتحدر الفروع التالية:

أ - سعد بن بكر بن هوازن.

ب - ثقيف ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي.

ج - جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن.

د - عامر بن صعصعة، ويتفرع منه:

١ - هلال بن عامر.

٢ - نُمير.

٣ - كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

٤ ـ كعب بن ربيعة بن عامر ومنهم قيس الملوح الذي أغرم بليلى.

٥ ـ عمرو فارس الفحياء.

ومن أولاد خصفة بن قيس بن عيلان سُليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة، وقد سكنوا أراضي الحجاز.

ربيعة

وهي الفرع الثاني من العرب العدنانيين، ومنهم تتحدر الفروع التالية:

١ ـ طبيعة بن ربيعة بن نزار.

٢ ـ عبد القيس وهو عدة فروع تنحدر منه وتنتسب إليه.

أ ـ شنّ ومنهم يتفرع يزيد بن شنّ، ثم الديل.

ب ـ لُكيز وإليهم يعود البراجم، وهم عبد شمس وعمرو وحي، وبنو معاوية بن ثعلبة، وإلى الفرع لُكيز ينتسب بنو الحُطم بن المحارب.

٣ ـ النمر بن قاسط ويتحدر منه عامر الفحيان.

٤ ـ تغلب بن وائل بن قاسط ويتحدر منهم الأراقم وهم جشم، ومالك والحارث وعمرو وثعلبة ومعاوية أولاد بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب.

ومن بني جشم عمر بن كلثوم الشاعر، وكذلك الأخطل. وقد سكنت تغلب في العراق وبادية الشام وأقامت اتصالات بالمناذرة والغساسنة وكانت تنتمي إلى النصرانية حتى مجيء النبي محمد ﷺ.

٥ ـ بكر بن وائل بن قاسط وتنتسب إليهم الفروع التالية:

أ ـ يشكر، ومنهم الحارث بن حلزة.

ب ـ مالك بن صعب بن علي بن بكر.

ج ـ حنيفة بن لجيم، الذي ينتسب إليه عدي بن حنيفة، والدّول وابن ماء السماء قاتل المنذر.

د - عجل بن لجيم.

هـ - سعد بن ضبيعة.

و - مالك بن ضبيعة.

ز - عباد بن ضبيعة وابنه الحارث بن عباد وابنه بجير.

ح - مُحلّم بن ذهل بن ثيبان.

ط - أبو ربيعة بن ذهل بن ثيبان.

ي - مرة بن زهل بن ثيبان وإليهم يعود المثنى بن حارثة الذي حارب الفرس خلال خلافة أبي بكر الصديق. وقد تنقلت هذه القبيلة بين تهامة واليمامة ثم البحرين ومنه انتقلت أخيراً إلى العراق حيث استقرت.

إياد

وهي القسم الثالث من العدنانيين واشتهرت بالغنى المادي وقد نزلوا في أرض العراق.

إليهم ينتسب قس بن ساعدة الحكيم الشهير.

القيم القبلية

إن الحياة البدوية على وجه العموم أعطت للبدوي صفات كثيرة، منها ميله إلى التنقل والسكن المؤقت وعدم معرفة بالتجارة أو الصناعة أو حتى كان يصل به الأمر إلى احتقار المهن المنوه عنها. وظهر في سلوكه ذلك التعامل والميل إلى الغزو. فكثير من المرات كانت قبيلة معينة تقوم بالاغارة على أراضي ومواشي قبيلة أخرى فتتلف خيامها وتسبي نساءها وتستولي على قطعانها وموجوداتها. وقد أدى هذا الأمر إلى ضرورة وجود مظلة واقية تكون في الغالب كناية عن قبيلة كبيرة تستطيع أن تستقطب من هم أقل حجماً وأضعف قوةً فتتولى حمايتهم لقاء خدمات معينة. لكن هذه الأحلاف ولأنها غير قائمة على أسس ثابتة، سرعان ما كانت تتفكك ليحل محلها الخصام والحرب.

واشتهر أفراد كل قبيلة بالفخر والاعتزاز بنسبهم وأصولهم، ففي نظرهم إن القبيلة التي ينتسبون إليها هي الأهم، ومحاربيهم هم الأشد والأقدر، يتضامنون في السراء والضراء، وكان يحصل بعض الأحيان أن يترك أحد الأفراد قبيلته وتلتجيء إلى قبيلة أخرى إذا رفضت قبيلته الأساسية أن تتحمل عواقب أعماله، خاصة عند قيامه بجنح معينة قد يترتب عليها انتقام أو ثأر.

لكن، وإلى جانب هذه الصفات الحذرة أو القائمة على رد الصاع صاعين والكيل كيلين، امتلك أفراد القبيلة خصالاً ومزايا حسنة، فكانوا كثيراً ما يكرمون الضيف ويغيثون الملهوف، وعُرف إجمالاً عن العربي هذه الصفات الحميدة والشرف في التعامل حتى مع العدو.

وساعدت المرأة داخل القبيلة أفرادها الرجال في تحمل ظروف العيش وشظفه فكانت تقوم بكافة الأعمال المتعلقة بالحياة اليومية كتحضير الطعام

والاهتمام بتدبير أمور الأولاد وجز أجواف الغنم وغزل الخيام والاهتمام بصنع السمن أو الأجبان. ولما كانت الحروب لا تهدأ ولم تكن للمرأة أهمية في الحرب، تراجعت مرتبتها وأصبحت في الدرجة الثانية بعد الرجل. ومن هنا كانت بعض القبائل تقوم بقتل البنات. حرقاً وهو ما عرف بعادة وأد البنات وقد تفشت هذه العوائد خلال العصر الجاهلي ولم تتوقف إلا بعد مجيء الإسلام.

أيام العرب

تعني هذه العبارة المعارك الحربية التي نشبت بين القبائل العربية في شمالي الجزيرة. وكانت أهم تلك القبائل التي تحاربت من عدنان، وقد تفرعت وتفرقت بأحيائها وبطونها وقبائلها، وكانت لغة الحرب في بعض الأحيان هي اللغة الوحيدة النسائدة بينهم.

وقد لعبت الأطماع الأقليمية دورها منذ تلك الفترة فلم تغب دولتا فارس والروم عن المسرح؛ فكانت الأولى تؤيد فريقاً وتضمه إلى جانبها ليدافع عن مصالحها، فيما تقوم الثانية بالأعمال العكسية التي تضمن لها حصة في الميزان.

وتذكر المصادر المختلفة أن العدنانية كانوا من العرب الأشداء، ولكن الطاقة الكبرى بقيت في انقسامهم، بحيث أنهم لم يستطيعوا أن يشكلوا قوة متضامنة متحدة تقف في وجه المتربصين بهم. حتى إذا لجأوا إلى حماية احدى الدول الكبيرة، فسيضطرون إلى القبول بتولية رجالها عليهم أو بعض النافذين من قبائل تعودت السيطرة وحظيت بالسطوة والسيادة مثل قضاعة وعنان ولخم وكندة.

وتجدر الإشارة إلى أن أهم من تولى رئاسة بدو الشمال تحت رعاية دولة اليمن هو زهير بن جناب الكلبي من بني قضاعة، خلال القرن الخامس الميلادي، واشتهر بيأسه وبطشه وشجاعته.

الانتقال إلى مرحلة السيادة الذاتية

ترسخ في أذهان القبائل البدوية أن الرضوخ لأمر دولة الحمير أمر لا بد منه، وحتى أن المشاحنات الكثيرة أدت إلى تزايد ونمو هذا الاعتقاد.

ولكنّ الهزيمة التي حلت بهؤلاء وبدولتهم أمام جحافل الحبشيين جعلهم يعيدون مراجعة حساباتهم، والتدقيق بكل المواقف الماضية، ومن هذا المنطلق راحوا يفكرون بطريقة تمكنهم من الخروج إلى النور بعد طول مكوث داخل غياهب القهر والظلام.

إن أول ما تبادر إلى أذهان أولي الأمر منهم هو مسألة التوقف عن دفع الجزية، ولكن بعد الاتحاد بين الجميع، وفي اعتقادهم أن في الاتحاد قوة. وقد بادرت قبيلة بني ربيعة إلى هذا الإجراء، فكانت الأولى التي تكسر حلقة الاذعان والخنوع بقيادة كليب الفارس الشهير، وهو معاصر لزهير بن جناب الذي ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب أكبر قبائل ربيعة.

وقام زهير هذا بغزو بكر وتغلب ومقاتلتهم القتال الشديد واستطاع أن يحقق نصراً مبيناً وأسر كليب ومهلهل ابني ربيعة. ولكن أقوام هاتين القبيلتين استطاعت أن تفك أسرهما.

وخلال المرحلة الأخيرة من القرن الخامس الميلادي جمع كليب بن ربيعة قبائل قضاعة وربيعة وأياد ومضر ونزار وسار إلى حرب اليمن في معركة عرفت بيوم خزار وهزمهم واستطاع الإفلات من سيطرتهم.

ورغم ذلك لم تتوصل قبيلتهم إلى التحول السريع نحو كيان الدولة، وبقيت الخصومات تلعب دورها في هدم صروح البناء الذي تؤسس عليه هذه القبائل عملها.

ما بين العدنانية وخصومها

جرت حروب عديدة بين القبائل التي عددناها لكننا لن نتوقف كثيراً عند أخبار تلك الحروب وسوف تكتفي بذكر بعض أهم تلك المواقع:

١ ـ يوم البيغاء

جرت أحداثه بين العدنانية وقبيلة مذحج التي حاولت التوسع والانفلاش على حساب العدنانية في تهامة حيث بني حصد، بالإضافة إلى جموع من قبائل أخرى من بينها عدوان التي تولى أمرها في تلك الأثناء عامر بن الظرب الذي جمع العشائر تحت قيادته، خلال أواسط القرن الرابع الميلادي.

الغلبة كتبت لبني حصد تحت قيادة عامر في مكان يقال له البيغاء، بين مناطق الجهتين المتحاربتين، وكانت هذه أولى المواقع بين اليمن وتهامة. ويقال بأن قبيلة معد لم تجتمع في العصر الجاهلي إلا ثلاث مرات في:

أ ـ البيغاء تحت قيادة عامر بن الظرب.
ب ـ تحت قيادة ربيعة بن الحارث في قضاعة خلال يوم السلان.
ج ـ تحت قيادة كليب بن ربيعة عند محاربة اليمن كذلك.

٢ ـ يوم الصفقة بين الفرس وتميم

خلال القرن السابع الميلادي أرسل أحد نواب ملك الملوك الفارسي كسرى أبرويز قافلة محملة من حاصلات اليمن عن طريق النطاع، في أرض نجد حيث طريق القوافل المعهود بين الجزيرة وبلاد فارس.

وفي المكان المشار إليه، أي النطاع، قام بنو تميم بالاغارة على القافلة وسلبوا حمولتها والغنائم الموجودة على ظهور البعير. وبعد حادثة السلب عرّج أفراد القافلة على اليمامة التي أكرم صاحبها هوذة بن علي الحنفي وفادتهم وأعطاهم الغذاء والكساء، وكان هوذة محط تقدير القوافل المتجهة

نحو بلاد فارس، نظراً للمساعدات التي كان يقدمها إليهم عند مرورهم بالاتجاهين، يؤمن لهم الإقامة أو الحماية على حسب حاجتهم. فجعله هذا الأمر مكرماً في عيني الشاهنشاه، الذي راح يتحين الفرص لتكريمه ورد الجميل له على كل صنائعه تجاه قوافله وأفراد رعيته من التجار. وقد قام أفراد القافلة النكدة الحظوظ بالتعبير عن امتنانهم، وحملوا إليه الأخبار العديدة عن الذكر الطيب الذي يحفظه له صاحب فارس وملك ملوكها، وأضافوا أن الملك كان يبدي دوماً الاستعداد للقائه والقيام بكل ما من شأنه أن يكرّمه. وهكذا كان، فتوجه بمعيتهم، وعند وصولهم إلى بلاد فارس أحسن الملك وفادته وتحادث معه وأمر له بمالٍ كثير وأعطاه أحد تيجانه وأقطعه الاقطاعات الكثيرة، وطلب إليه أخيراً أن يقدم على غزو بني تميم، على أن تقدم له الإعانات اللازمة والعساكر الضرورية من الجيوش الملوكية، وذلك لإنزال القصاص بمن تجرأ وسلب قافلة للتجارة مسالمة. فتوجه هؤلاء إلى مكان يدعى هجز، ونزلوا في أحد الحصون الذي يسمى المشقر القريب من بلاد قبيلة بني تميم الذين كانوا متسلحين بكثير من الحذر. لذلك عمد هوذة وقائد الجيوش الفارسية المشتركة في الغزوة إلى الحيلة، التي قضت بإرسال رجال إلى تميم فدعوا أفرادها لتناول الطعام داخل الحصن، ويقال بأن تلك الفترة كانت شديدة الوطأة على الناس، لناحية نقص الغذاء بسبب موجة جفاف طويلة وشاقة.

توافد هؤلاء لا يدرون ما الذي ينتظرهم داخل الحصن. فعمد هوذة إلى ادخالهم مجموعات صغيرة من ناحية حيث كانت فرقة تطيح برؤوسهم ويرمون من الناحية الثانية. إلى أن طال الوقت وأحسّ بعض الموجودين بأن من يدخل لا يعود إلى الخروج ثانية. وبعد ذلك دخلوا نحو أماكن توطن القبيلة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

ويقال بأن هوذة كان نصرانياً، وصدف ذلك يوم عيد الفصح فاستأذن القائد الفارسي أن يطلق مئة رجل منهم فكان له ما أراد. ودعي ذلك بيوم الصفقة.

العدنانية تصارع العدنانية

إن الشعور بخطر العدو الخارجي لم يكن دوماً السبب الوحيد لإشعال نار الحروب، وكثيراً ما حدثت معارك داخلية وجانبية ضمن القبيلة ذاتها أو بعض أجنحتها كما هي الحال في عدنان حيث راحت هذه تتصارع بشكل ضمني مستنفذة قدراتها الذاتية، في حروب متعددة الأوجه والأهداف، وربما أن هذا برمته يعود إلى طبيعة البدوي وبلاده الصحراوية الخالية من الحدود الواضحة والعوائق الكبيرة، فالحدود هي التي ترسمها كل قبيلة بدماء رجالها وبأس أصحابها وحسن استعمالهم للسلاح ولوسائل الغزو والسلب والانقضاض والتراجع. وقد قسمت الحروب التي دارت رحاها داخل بني عدنان إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ المعارك التي خاض غمارها جناحا عدنان الكبيران ربيعة ومضر.

٢ ـ المعارك داخل ربيعة وفي ما بينها.

٣ ـ المعارك داخل مضر وفي ما بينها.

وسوف نكتفي بإعطاء نموذج عن كل نوع من هذه الأنواع المذكورة، بادئين بالوقائع بين ربيعة ومضر.

أ ـ الوقائع بين ربيعة ومضر

أشهر الوقائع التي جرت كانت بين قبيلة بني تميم من قبائل مضر، وقبيلة بكر بن وائل من قبائل ربيعة.

أما مناطق القبيلة الأولى أي تميم فتوزعت بين اليمامة وهجر. وبكر استوطنت في تخوم تميم الشمالية، هذا العامل أي عامل المسافة القريبة بين مناطق الفريقين حتم اللجوء إلى الصراع كل ما دعت الظروف لسبب الجفاف

أو أي قحط يصيب إحدى المناطق. ويرجح الباحثون أن تكون قبيلة بكر هي المبادرة إلى اشعال هذا الصراع لأن مناطق خصومها أكثر خصباً، وقد حصلت بينهما اثنتا عشرة موقعة فازت كل منهما بعددٍ متساوٍ منها مع الأخرى.

ب ـ الوقائع التي فازت بها تميم على بكر هي

١ ـ يوم النباح وتيتل

٢ ـ يوم ذي طلوح

٣ ـ يوم جَدود

٤ ـ يوم الأياد

٥ ـ يوم الغبيط

١ ـ يوم شقيقة.

ولقد اخترنا من بينها يوم الغبيط.

يوم الغبيط: حصلت فيه المعارك بين بني شيبان وتميم، بعد أن سار قوم من شيبان إلى بلاد تميم لغزوها، وأغاروا على صحراء فلج فدارت رحى المعارك وانهزم بنو تميم وقتل منهم خلق كثير، ونهبت أموالهم. وتابع بنو شيبان زحفهم إلى قبيلة أخرى من تميم حيث استولوا على إبلهم ومواشيهم.

ولكن وبعد أن علم بنو يربوع وهم من تميم بالأمور الجارية استعدوا وساروا بقيادة عتيبة بن الحارث اليربوعي يقتفون آثار شيبان حتى أدركوهم في منطقة تسمى غبيط، حيث لمعت السيوف والرماح ونفرت الدماء تروي رمال الصحراء إلى أن انهزمت شيبان وكان ما كان، فاستعادت تميم لنفسها ما خسرته من أموال ومتاع ومواشٍ وأرزاق وأسر قائد شيبان المدعو بسطام الذي استطاع الإفلات من الأسر وافتدى نفسه بأعداد كبيرة من البعير، ويقال بأنه أهدى لآسريه هودج أمه وكان غالي الثمن، لكنه بعد تخليته من الأسر جمع جموعه وأغار على تميم واستعاد كل فديته.

ج ـ الوقائع التي فازت فيها بكر

١ ـ يوم فلج.

٢ ـ يوم الوقيظ.

٣ ـ يوم الزويرين.

٤ ـ يوم نصف قشاوة.

٥ ـ يوم مبايض.

٦ ـ يوم الشيطين.

وسوف يقتصر الكلام عن يوم الوقيظ.

يوم الوقيظ: جرت أحداث هذا اليوم بين اللهازم من بني بكر بن وائل، وبين بني تميم. وسبب ذلك احتشاد كل من بني عنزة وربيعة وعجل وذلك بهدف الإغارة على تميم وقد كتب النصر لبني بكر حيث أن اللهازم وعجلاً وعنزة أتوا إلى معاقل بني تميم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً بالإضافة إلى أعداد كثيرة من الأسرى.

ربيعة ضد ربيعة

الأيام بين بكر وتغلب

وصل كليب بن ربيعة إلى مرتبة عالية في السيادة والمال والملك، وكان أول أمره حكيماً بين الناس مصلحاً لبني قومه وأبناء عشيرته، لكن الدهر غلاب والإنسان قلاب لا يعرف التوقف عند حدود في السلطة والجاه والمال. فمال عن طبعه الأول فتجبر وتكبر وتحدى قومه، وأوجد ذلك نفوراً وكرهاً شديداً.

ثم أنه تزوج من إحدى نساء شيبان الذين يعودون بنسبهم إلى بني بكر.

وقد حدثت مفاخرة بين جاس أخي جليلة زوجة كليب وبين هذا الأخير بسبب ناقة لامرأة غريبة ترعى ضمن قطيع جاس المذكور داخل مناطق كليب. بحيث أن كليب ضرب ضرع الناقة المذكورة بسهامه، فتوعد جاس أن يقتص منه أمام خالته البسوس.

وما زال جاس هذا يتحين الفرص حتى قتل زوج أخته كليب بطعنة من رمحه أثناء قيام كليب برعي قطعانه. وتركه في البرية بعد أن وضع على جثته حجارة تحول دون إقدام الوحوش على أكله.

وأبلغ والده بمقتل صهره، وراحت القبيلة تستعد للحرب.

وفي المعسكر المقابل قام آل كليب وطلبوا إلى أخته أن تطرد جليلة زوجة كليب لأن أخاها هو القاتل، ولأن بني كليب اعتبروا ذلك إهانة لهم، فكان أن نفذت الأخت ما طُلب إليها تنفيذه، وغادرت جليلة إلى بيت أبيها. وكان المهلهل أخاً للقتيل وهو شاعر مشهور، قد بلغه مقتل أخيه فعمد إلى جزّ شعره وهجر النساء وحرم القمار والشرب وطلب إلى أبناء قومه أن يجتمعوا لأخذ الثأر.

لكنه عمد قبل الإقدام على الأعمال الحربية، إلى إرسال بعض الوجوه نحو بني شيبان، فحادث هؤلاء القادمون والد جاس وقدموا أربعة شروط قالوا إن فيها مخرجاً لكلا الطرفين، أما هذه الشروط الأربعة فهي على التوالي:

١ - إحياء كليب من جديد أي إعادته حياً (وهذا الشرط الأول مستحيل).

٢ - تسليم القاتل جاس لقتله.

٣ - تسليم همام.

٤ - تسليم والد جاس.

واشترط آل القتيل أن يتمّ تنفيذ أحد هذه الشروط الأربعة وفاءً لدم كليب.

وأتى جواب والد جاس أنه لا يستطيع تنفيذ الشروط الأول لسبب بسيط وهو أن الإنسان لا يستطيع أن يحيي الإنسان ويرده من الموت، وبالنسبة لتسليم ابنه جاس أوضح لهم أنه فعل فعلته على عجل وولى الإدبار ولا يعرف مكانه. أما بالنسبة لهمام فقال بأنه أبو عشرة أولاد وأخ لعشرة أخوة وعم لعشرة، ولن يسلمه قومه بجريرة غيره.

وأوضح بالنسبة للشرط الرابع المتعلق به بأنه متقدم بأيامه لكنه غير مستعجل الموت، وعرض عليهم أخذ أي من الأبناء الآخرين مكان القاتل أو أن يقوم بدفع فدية مقدارها ألف ناقة.

لكن بني كليب غضبوا من أجوبته وعادوا إلى ديارهم وما لبثت الحرب أن نشبت بين الفريقين، وأشهر المعارك كان يوم عنيزة عند فلج، حيث تقابل الفريقان، تغلب برئاسة المهلهل وشيبان برئاسة الحارث بن مرة. وقد دارت الدائرة على بني تغلب في تلك الموقعة. وفي موقعة الذنائب العظيمة انتصر التغلبيون وقتلوا أعداداً كثيرة من بني مرة، ثم التقوا في يوم آخر وكان القتال شديداً وكتب النصر لتغلب أيضاً وزاد عدد قتلى بكر الذين كان بينهم همام بن مرة المذكور آنفاً والذي كان التغلبيون قد طالبوا بتسليمه.

ويقال بأن المهلهل كان يحبه كثيراً فلما رآه مقتولاً قال كلمته الشهيرة: «... ما قتل بعد كليب أعز علي منك، وتا الله لا تجتمع بكر بعدكما على خير أبداً».

وأشهر الأيام التي تنازل فيها الفريقان خمسة:

١ - يوم عنيزة.

٢ - يوم واردات.

٣ - يوم الحنو.

٤ - يوم القصيبات.

٥ - يوم فضة.

وتذكر المصادر أن الحرب دارت بين الفريقين زهاء أربعين سنة.

الوقائع بين قبائل مضر

بلغت هذه الحروب بعددها مبلغاً أكثر من الحروب الواقعة بين قبائل ربيعة ومضر أو بين ربيعة وربيعة.

أما أشهرها فهي تلك التي جرت بين قبائل عبس وذبيان، وغطفان وأسد وهوازن وعامر بن صعصعة وقيس عيلان وقريش. وأهم الحروب على الإطلاق حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وهوزان، وحروب الفجار بين قريش وكنانة وحروب أخرى جرت بين عامر بن صعصعة وقبائل مختلفة.

أيام عبس وهوزان: أشهرها يوم الرحرحان الذي كانت إحدى أطرافه قبيلة عبس بقيادة زهير بن قيس بن جذيمة العبسي خلال القرن الخامس الميلادي، حيث أن قيس عيلان اشتملت في نسبها عدداً ليس بقليل من القبائل الكبرى، منها هوازن وعبس وذبيان وقبيلة غطفان وغيرها. وقد عاصر زهير بن قيس العبسي النعمان بن امرىء القيس وهو جد النعمان بن المنذر. وقد طلب إليه النعمان إرسال أحد أولاده ليستزيره. وكان

شاساً في ضيافة النعمان الذي أكرمه وتم صرفه إلى والده بالحلل والهدايا والمال، ولكن رباح بن الأشيل الغنوي تعدى عليه في الطريق وقتله وسلب متاعه وماله، من دون أن يعرفه أو يتعرف إلى نسبه.

وبعد حين وصلت الأخبار بالتوارد إلى زهير تقول بأن ابنه غادر ضيافة الملك وقد شوهد للمرة الأخيرة قرب مورد للمياه الخاص ببني غني، واستطاع الوالد أن يعرف قاتل ولده، فأغار على بني غني وقتل منهم قوماً كثيراً، وكان هؤلاء على تحالف مع بني عامر بن صعصعة وهم بطن من هوازن، فدارت الحرب بين عبس وعامر (هوازن). فهذه القبيلة الأخيرة كانت تخضع لزهير وتدفع له الجزية مرة في السنة داخل عكاظ، وهذا ما زاد الطين بلة وجعل الهوازن يضمرون الشر لزهير وقومه. وما لبثوا أن اجتمعوا وخرجوا يريدون قتال زهير الذي توجه بدوره لملاقاتهم. وكانت النتيجة أن الهوازن بقيادة خالد استطاعوا قتل زهير سيد غطفان وعبس وذبيان. أما خالد فولى الادبار بعد مقتل خصمه والتجأ إلى النعمان صاحب الحيرة وطلب الحماية فلباه إلى طلبه.

ولما همت قبائل زهير بأخذ الثأر من هوازن برز رجل اسمه الحارث بن ظالم المري وسألهم إعطائه فرصة للتخلص من خالد بن جعفر قاتل زهير. وبالفعل فقد استطاع هذا بلوغ الحيرة حيث مخبأ خالد وقابل النعمان ثم دخل إلى منزل خالد وقتله وهرب لأن النعمان أراد قتله على فعلته ولأن قبيلة الهوازن كذلك شاءت أن تأخذ بثأر صاحبها.

أيام داحس والغبراء: سبب هذه الحرب الطويلة أن قيس بن زهير سيد قبيلة عبس المذكور أراد أن يأخذ بثأر أبيه من بني عامر بن أبي صعصعة.

وراح لأجل ذلك يشتري السلاح ويعد العدة اللازمة للقيام بالحرب، ويقال أنه أثناء تلك الفترة التقى بالربيع بن زياد وطلب إليه المساعدة فلباه، لكنه ما لبث أن فارقه بعدما حصل منه على درع يقال لها ذات الحواشي عن طريق الخدعة.

فما كان من قيس إلا أن هاجم إبل الربيع وأخذ منها بحدود ٤٠٠ بعير، فباعها في مكة واشترى بأثمانها خيولاً أسمى اثنتين منها داحس والغبراء، وأقام مدة داخل مكة. وبعد تفاقم المشاكل مع أهليها توجه إلى بني بدر مع قومه وهم بطن من ذبيان.

حاول الربيع ثني هؤلاء عن نجدته والسماح له بالنزول بينهم. ولما لم يسمعوا منه غضب وغضبت معه عبس، وأراد حذيفة رئيس بدر أن يخرج قيس من بينهم، ولكن ذلك كان يتطلب خطة مدبرة حتى لا يبدو الأمر وكأنه إعلان حرب. وصودف وجود قيس في مكة عندما تراهن مالك وحذيفة على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيول حذيفة، لكن قيس وبعد عودته ومعرفته بأمر المراهنة رفضه لعلمه بأنه سيؤدي إلى نشوب الخلافات، وطلب إلى حذيفة فك الرهان واعتباره بأنه لم يكن، لكن هذا الأخير رفض، ولا بد بأنه رأى في هذه الأمور حجة قوية وفرصة سانحة للتخلص من غريمه قيس.

وأعدت العدة للسباق بين فرسي قيس داحس والغبراء وفرسي حذيفة الخطار والحنفاء، وأدار السابق عقال بن مروان القيسي، لكن حذيفة المصمّم على الاستفادة من هذه الفرصة أرسل رجلاً من بني أسد إلى مكان في الطريق حتى إذا كانت داحس هي المتقدمة عمد إلى إلقائها في أسفل وادي الآصاد.

وأعطيت إشارة الانطلاق فهرولت الخيول تسابق الريح، واستطاعت داحس أن تبتعد عن الأخريات بوضوح، وفي المكان الذي حدده الحذيفة نفذ الأسدي ما وعد به وما أرسل من أجله، وسقطت داحس مع خيالها وسط الماء وخرجت متأخرة. ولما أحس فارس الغبراء بتأخر رفيقه عاد إلى طريقه وقد سقطت الحنفاء وبقي الخطار والغبراء.

وعند نهاية السباق حلت الغبراء في المرتبة الأولى وبعدها الخطار ثم الحنفاء وهم من خيل حذيفة، وأخيراً وصل خيال داحس على فرسه فأخبر سيده قيساً بما تعرض له على يدي الأسدي، وأنكر حذيفة علمه بالأمر وادعى أن فرساه جاءا متتابعين.

وبعد ذلك اعترف الأسدي لقيس بفعلته وأوضح له أن حذيفة هو الذي

دبّر المؤامرة، وبقي حذيفة يطالب بالجائزة الأولى فأرسل لأجل ذلك ابنه إلى قيس للحصول منه على حقه، فما كان من قيس إلا أن قتله وأعاد فرسه إلى أبيه ونادى على قومه بالرحيل.

ولما شاهد حذيفة فرس ابنه وحيدة علم أن ابنه مات وتوجه نحو منازل بني عبس فوجدها خاوية.

وطلب قيس نجدة أخيه مالك بن زهير الذي كان ينزل في فزارة، لكنه لم يجبه. وكذلك رفض الربيع بن زياد تلبية طلب المساعدة.

وأقدم بنو بدر على اغتيال مالك بن زهير المذكور أعلاه حتى بلغ خبره بني عبس وتضامن الربيع معهم وتصالح مذاك مع قيس، وعلم حذيفة بالأمر فراح يتمم استعداداته لمواجهة الخصمين وجمع قومه من فزارة وساروا يريدون لقاء عبس التي اجتمعت مع الربيع.

إلتقى القومان في مكان يسمى العذق حيث هزمت فزارة وأسر حذيفة. وأرادت غطفان التوسط للصلح وكان لها ما أرادت وأهدر دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير وأطلق سراح حذيفة.

ولكن القوم لم يتركوا حذيفة في حال سبيله، فأنكروا عليه قبوله بالصلح وعدّوا ذلك نوعاً من الذل والخنوع وعلامة من علامات العار. فلبى طلبهم من جديد وأغار على عبس لكنه هزم مجدداً.

ولم ينتهِ الأمر فصولاً عند هذه الحدود وصارت الحرب سجالاً بين الفريقين يحشد فيها الفريق الأول أبناءه وحلفاءه، فيما يحشد الطرف الثاني قومه ومحاربيه. حتى مجيء يوم البوار حيث قتل فيه مئات عدة من فزارة وأسد وغطفان وحوالي العشرين من عبس التي استطاعت الانتصار في هذا اليوم.

وبالنهاية ملتِ القبيلتان الحرب بعد أعوام طويلة وعادت إلى الصلح، وليس أبلغ من وصف ويلاتها سوى ما كتبه زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة، حيث نقتطف المقطع التالي:

رأيت المنايا خبط عشواء من تعب ... تمتّه ومن تخطأ يعمر فيهرم
ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويندم

ويصف زهير الفترة الزمنية فيقول بأنها بلغت ثمانين حولاً سئم الناس منها.

حرب الفجار (قريش وكنانة وقيس عيلان)

وقع يوم الفجار الثاني خلال انصرام القرن السادس الميلادي، وقد سمي بيوم الفجار لأن أصحابه فجروا واستباحوا كل القيم. والسبب في ذلك أن أحد بني كنانة الأشرار أتى إلى النعمان بن المنذر أبي قابوس وحمل لطيمته إلى عكاز ليقوم هناك ببيعها على جري العادة كل سنة. وقد طلب النعمان أن تجاز على كنانة وقيس، وكان عروة بن عتيبة الكلابي من قيس عيلان حاضراً وقال بأنه مستعد لأن يجيزها على أهل الشيخ والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد فغضب البراض الكناني. وكان النعمان قد أعطى اللطيمة لعروة الذي سار بها، فراح الكناني يقتفي أثره إلى أن ضربه وقتله بالسيف، فهرب رجاله وأخذ الكناني العير وتوجه إلى خيبر. ومن هناك راسل حرب ابن أمية في عكاظ وهو أكبر وجهاء قريش في تلك الحقبة وأخبره أنه قتل عروة طالباً إليه أن يحذّر أشراف قبيلة قيس.

وأذاع حرب بن أمية الخبر بين أشراف قريش ومنهم هشام بن المغيرة فتشاوروا على مخاطبة قيس بالأمور الحاصلة والمستجدة. ولأجل ذلك أتوا إلى عامر بن مالك سيد قيس وتحادثوا معه واقتربوا من الصلح. ولكن صودف شيوع الخبر في قوم قريشيين توجهوا مسرعين إلى مكة لاعتقادهم أن قومهم واقعون في ضيق. فعدّ القيسيون هذا الأمر غدراً من قبل قريش لظنهم أنه تم التخطيط له بالاتفاق مع قبيلة كنانة أحد فروع قريش، وأقسموا على منع كنانة من التوجه أو الدخول إلى عكاظ.

وجدّوا في أثرهم والتقى القومان في نخلة، وكادت قريش أن تنهزم، ولكنها لجأت إلى الحرم واحتمت بداخله، وكان معهم في ذلك اليوم النبي محمد ﷺ، وكان لا يزال يافعاً في ربيعه العشرين.

وفي العام التالي كانت قيس قد أعدت عدتها وجمعت جموعها ومعها

ثقيف وغيرهم، وقريش من ناحيتها أتت بحلفائها من كنانة وأحابيش وعلى رأس جيشها حرب بن أمية.

وكانت قيس بلغت عكاظ قبل قريش، لكن هذه ورغم وجود قيس بداخل المدينة وسوقها نزلت نحوها وقد أقسم زعماؤها على عدم الاستسلام أو الارتحال، ومنهم بالإضافة إلى حرب بن أمية، سفيان والعاص وأبو العاص الذين لقبوا بالأسود. وتقابل الخصمان وظهرت علامات النصر أول الأمر تلوح إلى جانب قيس ولكن انقلب الوضع عند الظهيرة وكتب النصر لقريش.

الحروب بين عامر بن صعصعة وقبائل أخرى

تنتمي قبيلة عامر بن صعصعة إلى هوازن من قيس عيلان وكانت ذات شهرة بين القبائل العربية وقد جرت بينها وبين قبائل مضر مواقع عديدة أهمها:

١ - يوم شعب جبلة.

٢ - يوم ذي جنب.

يوم شعب جبلة: حدثت مواقع هذا اليوم بين قبيلة عامر بن صعصعة وقبيلة بني تميم، وتفصيل ذلك أن لقيط بن زرارة أراد مهاجمة بني عامر للأخذ بثأر أخيه الأسير الذي توفي أثناء حبسه.

وخلال استعداد لقيط للقتال علم أن بني عامر وبني عبس قد تحالفا، فمال هو إلى التحالف مع غطفان وأسد وبضع قبائل أخرى وساروا يريدون القتال وهم واثقون من النصر.

ولكنّ بني عامر استطاعوا الانتصار بعد لجوئهم إلى خطة قضت بحصر الإبل لمدة من الزمن استغرقت عشرة أيام دون أن يشربوها ماءً، ولما حضر بنو تميم أفلتوا هذه الإبل العطشى باتجاهها فدخلت بينهم وفرقت صفوفهم وضعضعت قواهم فقتل منهم قوم كثير وأسرت جماعة من رؤوسهم أمثال عنترة بن عبس، وقتل لقيط وتمت الهزيمة على بني تميم وبني غطفان.

وحدث يوم ذي جنب بعد سنة وحاول بنو عامر استئصال بني تميم لكنهم فشلوا وتتابعت المعارك إلى أيام حصلت خلال فترات زمنية لاحقة فكانت على التوالي أيام:

- النسار.
- الجفار.
- المروث.
- يوم الرقم.

الفصل الخامس

ديانات سكان الجزيرة
و
قبائلها قبل الاسلام

إنتشرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام ديانات متعددة تراوحت بين الاعتقاد بوجود إله حقيقي، وعبادات أخرى كانت ذات طباع وثنية، أما أشهر تلك الديانات فهي:

١ ـ الموحدون: عبدوا الله وحده ولم يشركوا معه عبادات أخرى، ومن أشهر رجالاتهم ورقة بن نوفل، وزهير بن أبي سلمى الشاعر.

٢ ـ الصابئة: وهم من الجماعات الوثنية، وقد عبدوا المظاهر الفلكية، وأشهرهم قبائل سبأ الحميرية التي عبدت الشمس.

أما كنانة فقد عبدت القمر، وبنو جرهم سجدوا للمشتري، وقريش عبدت الشعرى اليمانية.

٣ ـ المجوسية أو المزدكية: انتشرت هذه العبادة التي تسمى كذلك عبادة النار في تميم.

٤ ـ الزندقة: وهم فئة من الناس لم تؤمن بوجود إله حقيقي، واعتقدوا بديمومة الدهر وبطلان الآخرة، وانتشرت هذه العبادة في قريش.

٥ ـ الوثنيون: عبدة الأصنام والأوثان، وكانت هذه الظاهرة الأكثر رواجاً بين أهل الجزيرة العربية، وقد صنعت الأوثان من الحجارة أو الخشب أو بعض المعادن. واعتبروا أن هذه الأوثان تتشفع بهم عند الله. أما أهم تلك الأصنام فهي اللات والعزى ومناة.

أ ـ اللات: عبدته قبيلة قريش، وراجت هذه العبادة في مدينة الطائف.

ب ـ العزى: عبدتها قبيلة غطفان، وهي كناية عن شجرة حولها ثلاثة أحجار.

ج ـ مناة: كانت داخل قبيلة بني خزاعة، وعبدها أهل مكة.

لكنّ بعض الكتاب يوردون في أخبارهم أن اللات والعزى ومناة هي أصنام من الحجارة وضعت داخل الكعبة حيث كان الناس يعبدونها.

٦ ـ اليهودية: يربط اللاهوت اليهودي شمولية الخليقة بذاتية الشعب اليهودي الذي يسمى كذلك في التوراة إسرائيل. والتوراة هي الكتاب المقدس لدى اليهود بالإضافة إلى الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى عليه السلام في سيناء. وانتشرت الديانة اليهودية في قبائل بني نمير، وبني الحارث بن كعب وبني كنانة وذلك بسبب قربهم من أماكن سكنى اليهود في خيبر ويثرب.

٧ ـ المسيحية: الديانة التي بشر بها يسوع المسيح عليه السلام في فلسطين ودعا فيها إلى محبة الناس ونبذ التخاصم والإيمان باليوم الأخير.

وأشهر القبائل التي اعتنقت الديانة المسيحية كانت الغساسنة، وبنو الحرث بن كعب بن مذحج، وقبيلة قضاعة وبعض من قبائل تنوخ والتغلبيين وطيء وحمير وقبائل الحيرة.

الفصل السادس

قبائل لخم وغسان

إمارة الحيرة

تأسست هذه الإمارة على تخوم بلاد فارس، وكان أصحابها من العرب الذين ينتسبون إلى قبيلة لخم اليمنية، يتوارث فيها أحد أفراد الأسرة أسرة الأمير، ثم يثبته ملك الملوك الفارسي في مركزه.

وبلغ عرب الحيرة مراتب هامة لأنهم شكلوا حلقة الاتصال بين الجزيرة العربية وبلاد فارس خاصة خلال عهد أميرهم النعمان الأول.

ولقد تابع هؤلاء القوم رحلة التطور والتمدن والقوة خلال عهد المنذر الثالث، ولا يغفل عن الذكر النعمان بن المنذر الخامس الذي اختلف مع الملك الفارسي كسرى. وسنة ٦٠٢م ألغت الدولة الفارسية الاستقلال الذاتي الذي تمتع به اللخميون لفترات طويلة وعينوا من قبلهم حاكماً فارسياً تخضع له القبائل العربية، وبقيت الحال كذلك حتى الفتح العربي ٦٣٣م.

وتروي المراجع التاريخية أن الفرس أدخلوا إلى الحيرة أعداداً من الأسرى الرومان خلال حروبهم المتعددة معهم وهؤلاء تمازجوا مع السكان العرب وكانوا يحملون معهم تأثيراتهم الرومانية ـ البيزنطية.

وبالانتقال نحو بلاد الشام سوف نعثر على بناء إمارة أخرى كونها الغساسنة.

إمارة الغساسنة

أقام الغساسنة إمارتهم في بلاد الشام، وهم كما بات معروفاً ينتسبون إلى القبيلة التي حملوا اسمها وأصلهم من اليمن.

والمعروف أنهم تنصروا خلال الجيل الرابع بعد الميلاد، لكن الغموض يكتنف تاريخ إقامتهم في بلاد الشام وسلالات ملوكهم، ولكننا نعلم علم اليقين أن أشهرهم على الإطلاق كان الحارث بن جبلة الذي حكم بين (٥٢٩م ـ ٥٦٩م) وقد تحارب مع المنذر الثالث أمير اللخميين في الحيرة سنة ٥٢٨م.

ويقال بأن الأمبراطور البيزنطي يوستينيان هو الذي عينه في منصبه هذا. وبناءً عليه نلاحظ وجود نفوذ بيزنطي على الإمارة الغسانية شبيه بالنفوذ الفارسي على الإمارة اللخمية في الحيرة، فهذه الدول الصغيرة وقعت في دائرة النفوذ الإقليمي للدول الكبيرة يومها، وكان عليها أن تخوض حروباً بالواسطة كلما اختلفت فارس مع البيزنطيين أو العكس.

وسنة ٥٥٤م انتصر الحارث على خصمه المنذر الثالث في قنسرين، ولما خلفه ابنه المنذر قام بغزو عرب الحيرة وحقق عليهم نصراً في موقعة عين أُباغ.

وظل الأمر على كر وفر طيلة سنوات يتقدم هذا الأمير أو يتراجع ذاك حتى حدود السنة ٦١٤م عندما استطاع الملك الفارسي الدخول نحو فلسطين والاستيلاء على عود الصليب. وضعف بعد ذلك شأنهم خلال آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي شهر إسلامه لكنه عاد فرحل إلى بيزنطية بعد خلافه مع الخليفة بشأن قضية شخصية.

ومن الواضح أن اتصال الغساسنة بالبيزنطيين أتاح لهم معرفة الكثير من

أمور المدنية البيزنطية والأفكار الفلسفية اليونانية والقوانين الرومانية، حتى استطاعوا تجاوز عرب الحيرة من النواحي العلمية والثقافية، ولقد اشتهر العديد من الشعراء والأدباء أو المترجمين في صفوفهم.

ولا بد من التوقف عند دين الغساسنة الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب اليعقوبي، عكس أهل الحيرة الذين اعتنقوها على المذهب النسطوري. وخلال العهد الأخير لجبلة بن الأيهم حصلت هجرة النبي محمد ﷺ ولم يطلِ الوقت حتى انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وفي خطوة لاحقة سوف يتمدد إلى بلاد الشام وفلسطين والساحل الفينيقي ومصر ابتداءً من السنة ٦٣٦م مع معركة اليرموك.

الفصل السابع

اثر الفتح العربي

لمحة عامة في الفتح

لن نتوقف عند سير المعارك والفتوحات العسكرية، إنما سوف نتعدى ذلك إلى الحديث عن أثر الفتح في الحركات السكانية والنتائج المثيرة التي رتبها بعد ذلك.

يعتبر الدكتور فيليب حتي أن آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع هو ذلك الذي حصل في القرن السابع الميلادي تحت راية الإسلام. وانتشر هذا السيل، ليس في سوريا فحسب، وإنما في سائر مناطق الهلال الخصيب وكذلك في مصر وشمالي أفريقيا وفارس وحتى إسبانيا وبعض أجزاء آسيا الوسطى.

ويضيف حتي أن هذه الهجرة الأخيرة هي الحجة التاريخية التي يتقدم بها أصحاب النظرية التي تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الأصلي للساميين. ويضيفون إلى ذلك حجة لغوية مؤداها أن اللغة العربية قد احتفظت في نواحٍ كثيرة بأشد تشابه مع اللغة السامية الأم التي كانت جميع اللغات الساميةِ من لهجاتها، وكذلك حجة بسيكولوجية خلاصتها أن سكان شبه جزيرة العرب وخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية.

إن ما يهمنا من حوادث الفتح كما ذكرنا آنفاً ما ترتب داخل المنطقة من نتائج بادئين بلبنان.

لبنان

تألف في حينه من معاملتي طرابلس وصيدا. أما المعاملة الأولى فتضم ثماني مقاطعات يوردها الشيخ طنوس الشدياق كالتالي:

١ ـ الزاوية.

٢ ـ الكورة.

٣ ـ القويطع.

٤ ـ جبة بشري.

٥ ـ بلاد البترون.

٦ ـ بلاد جبيل.

٧ ـ جبة المنيطرة.

٨ ـ الفتوح.

أمراء المردة

نسب الشدياق هؤلاء القوم من أعيان ومشايخ النصارى المتواجدين في معاملة طرابلس بقوله أنه سنة ٦٠٠م، قدم البرنس أحد خواص ملوك فرنسا إلى سوريا الثانية واستملكها وأقام في أنطاكية الديبوس الذي سماه العرب عبدون، فهذا ولد ابناً سماه أغاتون وأغاتون ولد يوحنا عندما كان في قرية سروم من أعمال جبل السويداء.

ويوحنا عندما أصبح يافعاً دخل إلى دير القديس مارون قرب العاصي، وانتخب مطراناً على البترون وجبل لبنان سنة ٦٧٦م، حيث البدع من طبيعة واحدة أو هيئة واحدة كانت تنتشر خاصة في صفوف النساطرة واليعاقبة، وممن هم ليسوا من أتباع مجمع خلقيدونية.

وبعد الفتح الإسلامي رحل إلى جبل لبنان بعد سيامته بطريركاً سنة ٦٧٥م من قبل البابا سرجيوس، وكان للبطريرك الجديد أخت تزوجت من أحد أمراء المردة وأنجبت ولدين، إبراهيم وكوروس. وقد برع إبراهيم في الحياة العسكرية والأعمال الحربية وأصبح أميراً على المردة، أما أخوه فتوجه إلى الدرس على يدي خاله.

ويورد الشيخ طنوس الشدياق أنه عند ابتداء دولة العرب كان يوسف ملكاً أي أميراً على جبيل، دون أن يحدد لنا من هم أسلاف يوسف، فيما الأمير كسرى يتولى الضاحية أي كسروان، والأمير أيوب يتولى قيسارية فيليب وبيت المقدس.

وبعد كسرى خلفه الأمير الياس الذي قدم المساعدة للأمبراطور هرقل أثناء حربه مع الفرس في بلاد الشام سنة ٦٢٨م ويقال يومها بأنه استطاع استرجاع عود الصليب المقدس من أيديهم.

وبعد يوسف جاء الأمير يوحنا، الذي حارب سنة ٦٧٥م العرب وكسرهم وتولى أيام قسطنطين الملك امارة امتدت من القدس إلى حدود أنطاكية.

ولن ندخل هنا في تفاصيل أحداث تلك الحقبات كونها تدخل ضمن دراسة تاريخ لبنان، ونكتفي بالقول أنه سنة ١٤٨٨ حنق المقدم عبدالمنعم بن عساف والي جبة بشري، على بطريرك الموارنة وأهل إهدن ورؤساء الطائفة المارونية لطردهم اليعاقبة والأحباش الهراطقة من جبة بشري. وتعصب معه ووقف إلى جانبه جرجس بن الحاج حسن الصوفي النابلسي شيخ حدشيت، واستنجد الشيخ المذكور بالمتاولة الذين تجمعوا في الضنية على مقربة من طرابلس، واتجهوا ناحية إهدن. لكن أهل إهدن هزموهم في مرج تولا وفر الآخرون منهم نحو جرود البترون، والبعض الآخر يمم شواطىء قبرص.

سنة ١٤٩٥م توفي المقدم عبدالمنعم فتولى مكانه ابنه المقدم جمال الدين يوسف. والسؤال المطروح دوماً في أصول قوم المردة حيّر العلماء والباحثين في تلك الحقبة من تاريخ لبنان، فهل هم الجراجمة بذاتهم أو هم الموارنة كما يظهر من بعض فقرات ما أورده الشدياق؟ أم هم الإثنان معاً؟

وكان الأب هنري لامنس أطلق عام ١٠٠٢م في مجلة المشرق جدلاً حول هذه النقطة بالذات، وقد اتسع النقاش واتخذ في بعض الأحيان أو حتى في الكثير منها منطلقات إيديولوجية.

إن لامنس أظهر القوة العظيمة التي أحرزها المردة منذ بداية عهدهم والتي يجعلها متزامنة مع أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان فيقول: «من غريب أمر هذا الشعب أنه لم يبدُ في بادىء الأمر ضعيفاً ضئيلاً، بل نراه جاثماً فوق مشارف لبنان ضابطاً مضايقه، شاغلاً كل نقطة حصينة على مدى طوله من الشمال إلى الجنوب، وليس من يقوم في وجهه بل كثيراً ما ينقض من مركزه فيغزو المعاملات القريبة دون أن يرد أحد هجماته، ولم يزل أمرهم في اشتداد حتى صار كل الملهوفين والمطرودين من أهل الوطن وأصحاب الفاتحة يلتجئون إليهم ويلوذون بحمايتهم ويزيدونهم عدداً وقوة».

إذاً، إن لامنس يعطيهم صورة الملاذ الحصين، وكان أول من نسب إلى الجبل اللبناني صفة الحصن المقاوم. ويعتبر لامنس استناداً إلى تاوفانس أن المردة جاؤوا من مكان آخر ولم يكونوا في لبنان وكان عددهم اثني عشر ألف رجل مسلح. ويعين اسمهم فرقة أو طابوراً ولم يشكلوا شعباً عند البداية، يقومون بحراثة الأرض ولكنهم على استعداد لمباشرة الحرب في أية لحظة.

لكنه يؤكد أن هؤلاء القوم كانوا جنداً في خدمة الروم ويقول بأن هذا الموضوع هو محط اتفاق بين القدامى، وكأنه بذلك يقطع الطريق على القول بأنهم تصرفوا باستقلالية ذاتية. لكنه يشك أن يكون الموارنة هم نفسهم المردة.

من جهة ثانية، إذا تناولنا كتابات المؤرخين الموارنة أمثال السمعاني والحاقلاني، وابن نمروت والدويهي وبعض الكتاب الأوروبيين، نرى بأن المردة هم الموارنة، مستندين في ذلك إلى أنه خلال القرن السابع لم يكن في لبنان شعب من النصارى سواهم؟

ويتابع لامنس أن المردة داوموا على الغزو ولم يتوقفوا إلا بعد اتفاق بين الأمبراطور يوستينيانوس وعبدالملك بن مروان الخليفة الأموي، أُخرجوا بنتيجته إلى بلاد الارمن. مشيراً إلى أن المردة كانوا يتبعون الروم في حين أن الموارنة كانوا متحررين من السيطرة البيزنطية، وأن ظهور الموارنة كأمة مستقلة تزامن مع عهد حروب المردة في لبنان. ويؤكد أنه في حال اختلاف الشعبين لناحية العرق والعنصر فلا سبيل للإنكار بوجود علاقات ودية بين الفريقين.

أما المطران الدبس فيشير إلى أن الجراجمة والمردة أخوان في العقيدة المارونية، وإنْ لم يكونوا شعباً واحداً أو قوماً واحداً. وأكد على وجود علاقات متينة بين أطراف هذا الثالثوث الماروني، الجرجومي، والمردة، ويركز على الأمور التالية:

١ ـ المردة هو اسم للموارنة لقبهم به أعداؤهم في القرن السابع الميلادي،

وأن المردة والموارنة أمة واحدة.

٢ ـ يسند رأيه بأبحاث مؤرخي الطائفة المارونية ويقول بضرورة احترام نظرة هؤلاء لتأريخ طائفتهم وقومهم.

٣ ـ المجامع اللبنانية التي عقدتها الكنيسة المارونية أكدت أن أصحاب الغزوات المبحوث عنهم هم قدماء الموارنة.

وقد دخل حمى السجال الكثير الكثير من المهتمين والباحثين ليس آخرهم الأب انطاس الكرملي الذي انتهى إلى الأخذ برأي لامنس معتبراً أن الحقائق التي أوردها لامنس باتت عنده مثبتة راهنة، موضحاً بأنها تخالف كل المخالفة ما كان صرّح به وثبته آباؤنا وكتابنا، لكنّ الحق أحق أن يقال ويتبع.

وينساق المطران دريان إلى النقاش، ويوافق لامنس نظرته إلى الموضوع ويشدد من ناحية أخرى على أمانة الموارنة للعقيدة الكاثوليكية، ويذهب في تفسيره التاريخي إلى وضع الكتلكة في مواجهة الإسلام.

أما لامنس فبقي يعتبر أن المردة هم الجراجمة وليسوا الموارنة، وصار يجزم بذلك، لكنه يشير إلى علاقة ما قامت بين الموارنة وبقايا المردة، ويصنف هذه العلاقة بأنها اعتماد على الموارنة والجبليين المسيحيين.

أما صاحب كتاب تاريخ الكنيسة الأنطاكية السريانية المارونية فيقول أن الموارنة باشروا هجرتهم إلى لبنان منذ أوائل القرن الخامس، وكان هؤلاء المهاجرون تلامذة مار مارون الأولين، غادروا الشمال السوري بسبب ولائهم للقديس يوحنا فم الذهب صديق مار مارون. وينقل عن البطريرك مسعد أن الموارنة كانوا ممتدين ساحلاً وجبلاً في سوريا الثانية وفينيقية الموجود فيها لبنان.

وتورد مصادر أخرى أن وجود الموارنة في لبنان خلال القرن السادس الميلادي لا يستند إلا إلى النكبة التي حلت برهبان دير مار مارون على العاصي وخرابه ومقتل ٣٥٠ من رهبانه، بعد اغتصاب ساويروس البطريركية الأنطاكية سنة ٥١٢م وقد حملت إلى جبل لبنان موجة جديدة من هذا الشعب لحاقاً بإخوانه، معتصمين بموقعه الطبيعي عاكفين على حمد الله وشكره

متفرقين في أنحائه الشمالية والوسطى. ويحاول عبرئيل الشبابي من خلال ما تقدم إثبات الوحدة بين نشأة الموارنة الأولى وأرض لبنان. ويضيف أن ذلك تمّ في خضم مقاومة البدع، وكان جبل لبنان هو ما أتاح لهذه الولادة أن تسفر عن نمو متصل. ويخلص إلى الاستنتاج الذي يؤكد أن الوجود الماروني في لبنان يسبق حقبة المردة بقرنين ونصف ويشير إلى الخصائص التالية:

١ ـ دفاعهم عن الايمان المستقيم في وجه البدع والهرطقات.

٢ ـ حضورهم على الأرض اللبنانية.

٣ ـ الاستقلال السياسي ـ العسكري، بحيث أن كتلتهم الأساسية لازمت أرض لبنان.

ويذهب المؤرخ بولس نجيم إلى اعتبار المردائيين جيشاً من اثني عشر ألف محارب أرسلهم قسطنطين الرابع ليقاتل العرب في الأصقاع التي ملكوها، بعد أن هدده هؤلاء في عاصمته نفسها. ورجح أن تكون أصولهم عربية أو إيرانية، مقدراً أن يكون نزولهم جعل أول الأمر على أبواب صيدا وبيروت وفي كسروان. ولكنه لم يتوقف كثيراً عند احتمال أن يكونوا هم الموارنة ولو أنه يعتبر أن الجامع بينهم وبين الموارنة هو مقاومة العرب.

أما الأب لويس شيخو اليسوعي فيماثل بين جراجمة العرب ومردائيي الروم ويرى أن هذا الاسم الأخير مشتق من لفظة مرد الفارسية ومعناه «البطل».

أما يوسف السودا فيضع قصة المردة في إطار تعداده للموجات المتعاقبة من المتحصنين بلبنان، فبالنسبة إليه... «من الوثنيين إلى الموارنة، إلى العبيد إلى المتعبدين كان يلجأ إلى لبنان كل من لحق به جور من البلاد المجاورة لسبب ديني أو زمني، أفراداً وجماعات. وأولئك جميعاً على اختلاف الأديان والملل والشعوب والمذاهب كانوا يهجرون السهول الواسعة والمروج الذاهبة... قاصدين لبنان، للعيش فيه لأنه موئل الحرية ومعقل الأمان».

ويضيف السودا أن صفحة تاريخ المردة مثلها مثل الصفحة الفينيقية صفحة لبنانية، وقد انحصر تاريخهم بلبنان.

إذا راجعنا ما كتبه الدكتور فيليب حتي نلاحظ أنه وفق بين عدة طروحات فهو يشير إلى اندماج الجراجمة بسكان الجبل القليل السكان يومها من النصارى الذين يتكلمون اللهجة الأرامية وهي إحدى فروع السريانية، وأوجدوا بذلك ملجأ يلوذون به هم وكل الملهوفين والمضطهدين من سكان سوريا ومن سكان الساحل اللبناني، ويلوح لنا، يتابع حتي، أن الجراجمة بعد اندماجهم بسكان الجبل الأصليين أصبحوا يعرفون بالمردة.

وقد أسفرت هذه العملية الاندماجية بين الجراجمة ونصارى لبنان وفق رأيه عن قيام الطائفة المارونية، التي لا تزال الطائفة القوية السائدة في شمالي لبنان.

معاصرٌ آخر لحتي هو الدكتور أسد رستم، لا يرى في المماثلة والتنبيه بين الموارنة والمردة إلا اجتهاداً ضعيفاً ويعود لبناء رأيه هذا إلى ما كتبه كل من تيوفانس وكورينوس اللذين يؤكدان أن المردة غرباء أتوا لبنان من الخارج. ويخلص الدكتور رستم الذي عُرف عنه شغفه بالأصول إلى القول بأنه على المؤرخ متى سكتت الأصول، أن يسكت هو معها أيضاً. فالتاريخ لا يكتب إلا بالوثائق وبالوثائق فقط.

ويرى الدكتور كمال يوسف الصليبي أن ليس هناك ما يثبت أي علاقة بين الموارنة والمردة إلا الموافقة في الزمن وواقع توغل الجراجمة أو المردة في الأطراف الشمالية من بلاد الشام، ومن ضمنها لبنان، عندما كانوا يغيرون على البلاد الإسلامية. فيما يعتبر هنري أبو خاطر أن المردة هم من الألبانيين الذين أرسلهم الأقرم ثم سحبهم، والذين بقوا منهم جعلوا من لبنان موطنهم وأقاموا فيه وامتزجوا بالموارنة.

أما وقد عرضنا وجهات نظر بعض المؤرخين بالنسبة لموضوع الموارنة والمردة والجراجمة، فإن هناك وجهات نظر أخرى تتنوع وربما تذهب إلى حد الاختلاف والتباعد بين الرأي والرأي، بين النظرة والنظرة، ولكل منها

أسانيده وخلفياته، ولكل منها ربما أهداف متغايرة مختلفة.

فذكي النقاش يورد حكاية تمرد الموارنة سنة ٦٨٥م، ليس على الدولة الأموية، إنما على الروم، ومن هنا القول بالمردة. ويبرر لجوءهم إلى لبنان بسبب موجة الاضطهاد التي شنها اليعاقبة ضدهم، ويلاحظ أن الفتح العربي ليس حروباً دينية بل هو حرب قومية بين العرب والروم، لا بين المسيحية والإسلام.

ويلتقي علي الزين مع النقاش في تناوله موضوع المردة من حيث أنهم والموارنة واحد.

لكن عادل إسماعيل يستنتج أن أصل المردائيين والموارنة ليس واحداً على الإطلاق، ويسلم بحقيقة يوحنا مارون وقدومه أسقفاً على البترون سنة٦٧٦م، ويقول بأن الموارنة اندمجوا آنذاك بالمردائيين وفيما بعد أقصوهم. ويصل إلى نتيجة مفادها وجود شعب مركب في لبنان لا شعوب متجاورة.

ويقول الدكتور محمد علي مكي في كتابه «تاريخ لبنان» بأن الموارنة كانوا منذ الفتح الإسلامي سكان منطقة الجرجومة وقد وفدوا إلى لبنان حوالي ٦٥٦م ويميز بين الجراجمة بمن فيهم الموارنة، وبين المردة الذين يعتبرهم فرقة في جيش الروم دخلت لبنان أيام عبدالملك بن مروان.

أما فؤاد قازان فينفي تميز لبنان عند وصول المسلمين إليه، ويوضح بأن الموارنة هربوا من سوريا بسبب الاضطهادات الدينية بين البدع المسيحية، رافضاً أن يكون الموارنة هم المردة الذين ليسوا من اللكام أو الجرجومة إنما هم من المرتزقة.

وطالما نحن نسعى إلى التفتيش عن أصول هذا الشعب الذي اختلف الجميع حول أصوله وعلى تلك الأصول، فلنرَ ما أورده الأب ضو في أجزائه التي كتبها عن تاريخ الموارنة، حيث يعتبر أن اسم المردة هو مرادف للموارنة مركزاً على جملة نقاط هي التالية:

١ ـ المردة والجراجمة شكلوا شعباً واحداً وإنهما إسمان لمسمى واحد وهو

العنصر الرئيسي والأغلب، مرجعاً أصولهم إلى الفارسية، حيث أتى قسم منهم إلى سوريا واستقر في الجرجومة وعرف بالجراجمة، وقسم آخر استقر في آسيا الصغرى وبلاد الروم وعرف بالمردة. ويضيف عن علاقة المردة بالموارنة بأن مار يوحنا مارون جاء لبنان متتبعاً تحركات المردة أبناء الموارنة بالروح للسهر عليهم وعلى الموارنة في لبنان مثلما يتبع الراعي قطيعه.

٢ - يؤكد أنهم من أصول أمورية إلى جانب الفارسية دُعوا «ماراتواو ماردو» وهم شعب سوري ولبناني ورد ذكره في ٢٤٥٠ ق.م. ومن مدنهم عمريت أو مارادوس. ويبرّر رأيه بالاستناد إلى الخصائص الاثنية المارونية، حيث أن العنصر الفينيقي اندمجت فيه عناصر كنعانية وآرامية. وبالمقابل فالعنصر الآرامي السوري لا يختلف عن الآراميين اللبنانيين، وينتهي إلى القول بأن عنصر المردة يمتلك أصولاً أمورية.

نسبة الشهابيين

ينتسب الشهابيون إلى مالك الملقب بشهاب من سلالة مرّة بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فهر المسمى قُريشاً بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركه بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان المنتسبة إليه العرب المستعربة ابن أدّ بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان أو سليمان بن نبت أو نابت بن حمل بن قيذار بن إسمعيل السرياني جدّ العرب المتعربة ابن إبراهيم الخليل متسللاً إلى سام بن نوح.

أما مرّة فكان له ثلاثة أولاد هم كلاب، وتيم ويقظة. أما كلاب فولد قعي وقعي ولد عبد مناف وعبد مناف ولد هاشم وهاشم ولد عبد المطلب وعبد المطلب ولد عبدالله وعبدالله ولد محمد ﷺ.

أمّا الولد الثاني تيم فمن أولاده أبو بكر الصديق أول خليفة بعد رسول الله.

والابن الثالث يقظة ولد مخزوم ومخزوم ولد عمر وعمر ولد عبدالله وعبدالله ولد المغيرة والمغيرة ولد هشام وهشام ولد حارث وحارث ولد مالك الملقب بشهاب وقد أقره الخليفة عمر بن الخطاب أميراً على بلاد حوران وإليها انتقل مع أقاربه وعشيرته.

ومالك (شهاب) ولد سعد، وسعد ولد قاسم وقاسم ولد شهاب، وشهاب ولد عُمر الذي قُتل ومحمد ولد قيس وقيس ولد عامراً الذي لقب بالاذرعي. أما منقذ فكان له أربعة أولاد، نجم وفاتك وحيدر وعباس. ونجم ولد عامر وعامر قرقماس وقرقماس ولد سعد وسعد ولد علي، وحسين. وقد توفي علي دون عقب. وأما حسين فولد أبا بكر وأبو بكر ولد محمداً ومحمداً ولد قاسماً وقاسم ولد أحمد وأحمد ولد علياً وعلي ولد عثمان

وأخيه يونس، فتوفي عثمان دون عقب، ويونس ولد منصور ومنصور ولد ملحماً وملحم ولد منصور ومنصور ولد عليّاً وأحمد، وعلي ولد محمداً وقاسماً وتوفي محمد دون عقب، أما قاسم فولد منصوراً ونصيفاً ومنصور ولد موسى وقاسم، وموسى ولد حيدراً وقاسم ولد نجماً ونجم ولد إسماعيل، وأحمد بن منصور ولد حسين. وحسين ولد علياً وبشيراً، وعلي ولد منصور، فهؤلاء الأمراء المذكورون ينتسبون إلى الحارث بن هشام المخزومي القريشيّ الحجازي.

وسنة ٦٢٢م، لما هاجر رسول الله محمد ﷺ، آمنوا به وأسلموا أمرهم لله.

وسنة ٦٣٣م كان الخليفة أبو بكر الصديق وجّه الحارث بن هشام أمير بني مخزوم لفتح الشام مع القائد أبي عبيدة بن الجراح. فنهض هذا الأمير مع ابنه مالك وأقاربه وعشيرته وقاتلوا في أجنادين واليرموك ومرج الصغر وانتصروا على أعدائهم، وسنة ٦٣٤م حاصروا دمشق وفتحوها عنوة فقتل الحارث.

وفي السنة التالية بعدما كان الخليفة عمر بن الخطاب قد استهل عهده، بادر إلى تعيين مالكاً بن حارث أميراً على بلاد حوران وقلده مهمة النجدة للجيوش الآتية من الحجاز لمساعدة أبي عبيدة في أعماله الحربية، فأقام مالك فيها هو وآله وعشيرته لمدة قاربت الثلاثين سنة ونزلوا في قرية شهباء وسنة ٦٦٦م توفي مالك وله من العمر اثنتان وخمسون سنة حارب خلالها بني غسان ومنعهم من الدخول إلى حوران.

وكان للحارث زوجة من ذرية شهاب بن عبدالله بن أبي زهرة القريشيّ من رهط آمنة أم محمد ﷺ. وكان مالك ابنها فلقبه شهاب تيمناً بجده لأمه، ودعيت ذرية مالك بعد ذلك ببني شهاب.

ثم تولى القيادة بعد مالك ابنه الأكبر الأمير سعد الذي توفي سنة ٧٢٥م فخلفه ابنه الأكبر الأمير قاسم الذي أرسل أخ الأمير وقاصاً بمعية مسلمة بن عبد الملك لقتال الروم في القسطنطينية سنة ٦٣٧م.

وسنة ٧٤٢ توفي الأمير قاسم فخلفه الأمير شهاب الذي وجه أخاه الأمير سليمان مع الرشيد بن المهدي سنة ٧٨٠م لقتال الروم، وسنة ٧٩٠م توفي الأمير شهاب فخلفه الأمير محمد ابنه، وسنة ٨١٧ توفي محمد فتولى بعده ابنه الأمير قيس، وبعد قيس تولى عامر الأذرعي خلال تولي ابن طولون الذي أرسل حملة كبيرة لقتاله في صحراء أذرع، واستطاع الأمير أن ينتصر عليه وتوطن في أذرع وحمل لقب الأذرعي.

وسنة ٩٨٣ توفي الأمير عامر فتولى ابنه الأمير سعيد، وسنة ٨٩٥م قدم القرامطة إلى حوران للاستيلاء عليها واستطاع الأمير أن يصد غزوتهم وبطردهم.

وسنة ٩٣٣ توفي الأمير سعيد وتولى بعده ابنه الأمير خالد الذي توفي سنة ٩٥٩م فخلفه مسعود الذي توفي ٩٨٧م فتولى بعده عمرو سنة ١٠١٠م. وتوفي عمرفتولى بعده ابنه الأمير مسعود. وسنة ١٠٤١م توفي مسعود فخلفه محسن، وسنة ١٠٧١م توفي محسن الذي خلفه الأمير بشير، وسنة ١١٠٥م توفي بشير فخلفه الأمير حسن الذي بقي حتى سنة ١١٢٧م فتولى بعده الأمير مسعود وسنة ١١٥٤م توفي مسعود فخلفه الأمير عمرو وسنة ١١٧٢م توفي عمرو فخلفه الأمير منقذ.

وبعد تخاصم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وقف الشهابيون إلى جانب صلاح الدين وناصروه على عدوه، وقد أراد صلاح الدين أن يقيمهم كعازل بينه وبين نور الدين. ولكن بعد اصطلاح الأحوال بين السلطان الأيوبي ونور الدين ورجوع صلاح الدين إلى مصر، تشاور الأمير منقذ الشهابي مع أعيان عشيرته ووجوهها بشأن الأمور الطارئة والمستجدة، لأنه كان خائفاً من ارتداد نور الدين عليه وقرّ رأيهم على الرحيل من حوران إلى صحراء تسمى الجر اليعقوبي، ويعتقد بأن هذا المكان هو أراضي الحولة حيث جسر بنات يعقوب في نواحي فلسطين. وعاد نور الدين زنكي فسمح لهم بالإقامة حيث يريدون، فاتفقوا على النزول في وادي التيم بين الكنيسة والجديدة، وبلغ عددهم خمسة عشر ألفاً، وحصلت إثر ذلك معارك عديدة بينهم وبين الصليبيين الذين كانوا في قلعة الشقيف.

وبعد تولي صلاح الدين الأيوبي أمور المواجهة، وكان نور الدين زنكي قد توفي، أرسل يوجه إليهم التهنئة مع خلع الولاية على البلاد التي بحوزتهم وأقر الأمير منقذ على مركزه.

وعرف الأمير يونس المعني بهذه الأخبار وكان والياً على الشوف وطلب من الأمير منقذ التوجه إلى جبال الشوف، وما لبث الأمير الشهابي أن لبى دعوة والي الشوف والتقاه في بلدة الباروك الجبلية والقريبة من البقاع، وحصل بعد ذلك أن الأمير محمد الشهابي تزوج بابنة الأمير يونس المعني وابن الأمير يونس المعني تزوج ابنة الأمير منقذ الشهابي.

سنة ١١٩٣م توفي الأمير منقذ وله أربعة أولاد هم الأمراء نجم، فاتك، حيدر وعباس. وآلت الامارة إلى الأمير نجم الذي زوج ابنه عامر بابنة الأمير سيف الدين المعني الذي تولى الإمارة بعد وفاة والده سنة ١٢٢٥م.

وحارب عامر الصليبيين سنة ١٢٤٠م واستنجد لأجل ذلك بأقاربه المعنيين الذين أنجدوه. وفي الخيام التقى الجيشان وحصلت بعض المعارك التي أحرز بعدها الأمير عامر بعض التقدم وضمّ لنفسه بعض الأراضي الداخلة في منطقة البقاع. ومع مجيء السنة ١٢٥٣ توفي الأمير عامر تاركاً الإمارة بعده لابنه قرقماس، وقد استخف به بعض الأمراء الشهابيين وتآمروا على التخلص منه، وهم سلمان، ومحمد وجابر. لكنه عرف بمؤامراتهم، فتوجه إليهم ليلاً وتظاهر بأنه يريد مفاوضتهم على الأمور التي يحتجون عليها، وانقض عليهم وقتلهم. ثم أرسل أعوانه للقبض على أقربائهم وسوقهم إلى السجن، ثم أحضر كامل الأمراء وقطع أمامهم رؤوس عشرة من رفاق الأمراء المقتولين، فأدخل الخوف إلى قلوب الجميع. وبعد هذا الدرس القاسي والذي لا يمكن لأي إنسان أن ينساه أطلق السجناء وحذرهم الاتيان بأي عمل يعكر الأمور من جديد.

وأثناء حملة المغول خلال السنة ١٢٨١م قام الأمير قرقماس بناء لطلب قلاوون بالتصدّي لهم في حمص وحصل على تهنئة السلطان.

تسلم شؤون الشهابيين بعد وفاة قرقماس سنة ١٢٨٧م ولده الأكبر سعد

الذي لم يستطع أن يقف بوجه الحملات المغولية الآتية باتجاه وادي التيم وسارع إلى نقل حريمه إلى جبال الشوف بمعية ابنه علي.

واشتد حصار المغول حول الأمير سعد وخواصه لكنهم استطاعوا النفاذ نحو كامد اللوز في سهل البقاع على مقربة من القرعون، ومن هناك توجهوا إلى نبع الصفا في الشوف وانضموا إلى أهلهم وعشيرتهم.

وبعد تراجع المغول نحو دمشق وحلب، عاد الأمير سعد يستطلع مناطق حاصبيا ووادي التيم وكانت عرضة للخراب والهدم، فعمل مع من معه على ترميمها دون أن يجسر على الإقامة فيها لخوفه من عودة التتار، أو الافرنج، وبقي خارج المنطقة فترة خمس سنوات، وتوفي سنة ١٣٢١م فتسلم مقاليد الأمور ابنه الأمير حسن.

وبسبب تردي العلاقات بين الأمير حسن والملك عماد الدين الألفي راح هذا الأخير يكيد عليه مقدمي البقاع العاملين في خدمته، ومنهم جمعة الحرباني النابلسي ومحمد بن صبح. وقام الاثنان بمهاجمة وادي التيم بغفلة من الأمير حسن الذي توجه فوراً إلى قرية بيت لهيا من أعمال البقاع وأنزل فيهم الهزيمة في سهل المحيدثة وأسر ابن صبح ودخل إلى البقاع وأحرقه.

توفي الأمير حسين سنة ١٣٤٩م فتولى ابنه الأكبر أبو بكر الولاية بعده. وأتى بعد أبو بكر ولده الأمير محمد سنة ١٣٨٠م.

عند قدوم تيمورلنك سنة ١٤٠٠م إلى بلاد الشام خاف الشهابيون أبناء وادي التيم، فرحلوا باتجاه الشوف، وهناك توفي الأمير محمد بعد ست سنوات في ١٤٠٦م وأصبح ابنه الأمير قاسم والياً مكان أبيه. وقد اشترك في التصدّي للصليبيين الذين نزلوا في سهل الدامور، جنباً إلى جنب مع الجراكسة الآتين من دمشق، وقد كتب النصر لهم وقد قدمت لقاسم الخلع وأقر على ولايته. خلفه ابنه سنة ١٤٤٢ وكان اسمه أحمد، وقد اتخذ كريمة ابنت أحمد المعني زوجة له، لكنها لم تخلف أبناءً فتزوج ثانية من إحدى بنات الأمير ملحم المعني التي ولدت له الأمير علي وأخوته، وخلف علي والده سنة ١٤٧٥م.

خلال هذا العهد حصل صراع جديد على الولاية داخل الأسرة الشهابية، وتفصيل الأمر أن أحد أعمام علي وهو الأمير بكر الشهابي ألّب بعض أعيان الأسرة الموالين له وهاجم ابن أخيه وألقى القبض عليه وجلس مكانه، بعد أن سجنه.

وفيما بعد استطاع علي الهرب من السجن باتجاه الشوف، وهناك نزل عند أحد أخواله وهو الأمير يونس المعني، وراح يراسل أعوانه المخلصين طيلة فترة من الزمن قاربت السنة، بعدها عقد العزم على العودة إلى استرجاع ولايته في وادي التيم، فالتقى بأنصاره في بلدة القرعون البقاعية، وتوجه نحو بلاده واستطاع التغلب على الأمير بكر وقتله منهياً بذلك هذا الابتعاد القسري.

في حدود ١٤٨٨م حصلت وفاة الأمير علي فخلفه ابنه عثمان الذي ما لبث أن توفي فتولى أخوه يونس مكانه حتى سنة ١٥٠٢م، وتسلم مكانه حينها ابنه الأمير منصور الذي تزامنت فترة ولايته مع فترة تولي الأمير فخر الذين عثمان المعني جبل لبنان، وقد حضر إليه يهنئه حيث تجدد بذلك عهد التحالف بين الأسرتين.

في هذه الأثناء وفي سنة ١٥١٥ بدأت جحافل العثمانيين التي يقودها السلطان سليم من التوجه نحو بلاد الشام.

نسبة المعنيين

ينتسب المعنيون إلى الأمير معن بن ربيعة الذي ينتسب بدوره إلى العرب الأيوبيين المتسلسلين من ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان المنتسبة إليه العرب المستعربة الذين يتسلسلون من ابن أدر بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذر بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

ويقول الشيخ طنوس الشدياق بأن سبب تسميتهم بالأيوبيين عائد إلى ظهور أحد أعقاب ربيعة الفرس المسمى أيوب وكان لهم أحد عشر ولداً طردهم بنو ربيعة فتوجهوا إلى الجزيرة على الفرات وهناك تكاثروا ولقبوا بالأيوبية وبرز منهم رجل اسمه ربيعة رحل إلى حلب، ولما توفي قام مكانه ولده معن، الذي حارب الصليبيين سنة ١١١٩م لكنه انكسر أمامهم. وبعد سنة واحدة جاء إلى الشوف بحلول سنة ١١٢٠م. وسنة ١١٤٩م توفي الأمير معن فخلفه يونس، وسنة ١١٧٥م حل يوسف مكانه، وسيف الدين حل مكان يوسف. أما عبدالله فقد حل مكان سيف الدين، وبعد وفاة عبدالله جاء علي، وعلي ترك محمد، ومحمد ترك سعد الدين.

وبعد سعد الدين تولى عثمان الذي ولى أحمد وأحمد ولى ملحماً، وبعد وفاة ملحم الذي كان له ولدان هما يوسف وعثمان تولى يوسف وليس له أولاد فانتقلت الولاية لأخيه عثمان بعد وفاته، وعثمان ترك فخر الدين الأول. وفخر الدين ترك قرقماس، في فترة الاحتلال العثماني.

نسبة التنوخيين

تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن طي بن تميم بن النعمان بن المنذر بن أمرىء القيس المحرق بن عمرو بن أمرىء القيس بن عمر بن نمارة بن مالك الذي كان يلقب بلخم بن فهيم بن أوس المنحدر من إسماعيل الذي ولد جمهر وجمهر ولد عيسى وعيسى ولد أحمد وأحمد ولد عليا. وعلي ولد محمد ومحمد ولد إبراهيم وإبراهيم ولد الحسين والحسين ولد علياً، وعلي ولد بحتراً وعرف الدولة وبحتر ولد كرامة وعلياً وكرامة ولد أربعة أولاد لم يبق منهم سوى الولد الرابع وهو حجي الذي لقب بجمال الدين وقد ولد محمداً وعلياً. ومحمد ولد حجي وخضراً وحجي ولد خمسة أولاد هم محمد، وأحمد وعبد الرحمن وعبدالله وعبدالحميد.

وكان لمحمد إبراهيم ويوسف وإسماعيل ومحمود، وإبراهيم ولد خليلاً وخليل ولد إبراهيم. ويوسف ولد حسين وإسماعيل ولد حسناً، وحسن ولد أحمد ومحمود ولد حسناً ومحمداً اللذين يتحدر من سلالتهما محمود وعز الدين وقوام الدين وأولادهم، ومحمود ولد ولدين هما عبد الباسط وأخاه وعبد الباسط كذلك شأن أخيه.

وأحمد بن حجي ولد ثلاثة أولاد، عبد القاهر، وحجي وعبد الحميد، أما عبد القاهر فولد محمد وعبد الحميد ولد أحمد وأحمد ولد محمداً، ومن هذه السلالة حسام الدين الذي توفي بلا عقب فانقطعت سلالة فخذه.

وعبد الرحمن بن حجي ولد حسيناً، وحسين ولد ثلاثة أولاد حجي وعبد الرحمن وعبد الحميد، وعبدالله بن حجي أسر على أيدي الصليبيين في الدامور. وعبد الحميد توفي دون خلف، أما خضر بن محمد فكان له ستة أولاد، الحسين، الحسن، عبدالله ويوسف ومحمداً، وسليمان.

الحسين ولد صالح وإبراهيم، والحسن ولد خضراً، لكن هذا توفي دون عقب، وعبدالله توفي هو الآخر دون عقب. ويوسف ولد فرجاً ومحمداً وتوفي فرج دون خلف ومحمد ولد سليمان وعثمان، وسليمان ولد عبدالله الذي لقب بالسيد، ومحمد ولد حمزة واسماعيل، وحمزة ترك محمداً ويوسف واسماعيل ترك عبد الرحمن الذي توفي دون عقب، وسليمان ولد محمد وعلاء الدين فتوفي هذا الأخير دون خلف. وإبراهيم بن الحسين ولد خمسة أولاد هم على التوالي: محمد الابن البكر ثم يليله علي فأحمد فموسى وأخيراً الابن الأصغر يحيى.

ومحمد ولد ابناً لكنه ما لبث أن توفي قبل أن يبصر ابنه النور فسمي ابنه على اسمه. وعلي بن صالح ولد حسناً وحسن ترك محمد واسماعيل، ويحيى بن صالح ترك كلاً من عثمان وصالح، أما عثمان فكان له يحيى الذي توفي دون عقب وأحمد بن الحسين ولد ثلاثة أولاد، سليمان وعيسى وأبا بكر. وكان لسليمان داود وداود ولد علم الدين الذي توفي دون أن يكون لديه أولاد.

أما عيسى فله أربعة أولاد: محمد، وصدقة وعمر وموسى، محمد توفي دون خلف، صدقة ولد حسناً وزنكي، أما حسن الأكبر من زنكي فكان له محمد الذي توفي وهو صغير السن. وزنكي ولد محمداً وأبا بكر، ومحمود ولد حسناً وأبو بكر ولد ثلاثة أولاد هم صالح ويحيى ومحمد. صالح الذي توفي دون وريث ويحيى كان له ولدان أحمد وصالح، وأبو بكر بن أحمد توفي دون خلف، وعمر بن عيسى ولد خالد وخالد ولد ظاهراً الذي مات دون عقب، ثم كان له ولد آخر سماه على اسم أخيه المتوفي أي ظاهر وقد توفي دون عقب. وموسى بن عيسى ولد له محمداً وأحمد وعبد القادر وحجي، أما محمد وأحمد فقد ماتا دون خلف، وعبد القادر كذلك مثل أخوته وحجي ولد علي.

وعلي بن بحتر ولد صالح جدّ أمراء عرمون الغرب، وصالح ولد ثلاثة أولاد، بحتر وعلي ويوسف. وكان لبحتر كرامة ولعلي حسين وليوسف مفرج وموسى. ولمفرج بن موسى محمد وأحمد وعلي وخليل، ولموسى بن

يوسف محمد وحسن. ولحسين بن علي ولدين علي ويوسف ولعلي ناهض الدين، ولمحمد بن مفرج علي ولأحمد بن مفرج مفرج.

أما علي فمات دون خلف، وخليل ولد أحمد وأحمد ولد مفرج.

أما الأمير علم الدين بن سليمان بن غلاب بن معن بن معتب بن أبي المكارم بن عبدالله بن الوهاب بن هرماس بن طريف المنسوب إلى التنوخيين فولد أربعة أولاد هم غلاب وجواد وداود ومحمد. فجواد ولد علي وعلي ولد غلاباً وحسناً. أما غلاب فإنه توفي دون عقب وحسن بن علي ولد محمداً فتوفي صغيراً. لكنّ علم الدين هذا تبرأ من آل تنوخ وأصبح أحدا أمراء اليمنية سنة ١٣٠١م وحضر حصار بغداد مع السلطان مراد الذي أنعم عليه بولاية الشوف.

نسبة الأرسلانيين

الأمير أرسلان بن مالك الذي يتحدر من الملك المنذر ابن الملك النعمان ابن الملك المنذر اللخمي المعروف بابن ماء السماء.

فالملك المنذر كان له ابن بكر اسمه عون الذي ولد قحطان وعمرو. وقحطان كان له المنذر التنوخي والنعمان، والمنذر له بركات وبركات، مالك وقابوس، ولمالك حسان والنعمان والمنذر وعبد الملك وأرسلان جد الأمراء الأرسلانيين المذكور أولاً. ولأرسلان كل من مسعود ومالك، وعمرو ومحمود وهمام وإسحق وعون، أما لمسعود فمحسن وهاني وعيسى، محسن توفي دون خلف، هاني كان له عامر وعيسى ولد غانم ومسعود الذي توفي دون وريث. غانم ولد هلال وهلال ولد كعب وأحمد، كعب توفي دون عقب وأحمد ولد عبد العزيز الذي توفي هو الآخر دون خلف، ونصر له عامر وهمام، عامر ترك أولاداً توفوا دون عقب، يعقوب ولد ربيعة الذي توفي. أما مالك بن أرسلان فرحل ناحية مصر.

وعمرو بن أرسلان الثالث في الترتيب العائلي بين إخوته، فكان له زيد وجعفر، زيد الذي ترك شداد وجعفر الذي مات دون وريث. شداد ولد خالد وأسعد وأرسلان. خالد توفي دون عقب، وأسعد له داود الذي مات جميع أبنائه، وأرسلان بن شداد له زيدان وزيدان ترك طلحة ومفرج الأول أي طلحة مات ومفرج ولد عبد الكريم وسعد وعبدالله، فلعبد الكريم زيدان الذي توفي دون عقب ولسعد أحد الأحفاد المدعو قاسم الذي به انتهى فخذه لما توفي دون وريث وعبدالله ولد فارس، وفارس توفي دون عقب.

ومحمود بن أرسلان ولد الحسين والحسين ولد محمد ومحمود، ومحمد ولد عمرو ومحمود ولد سعد، وسعد ولد الحسين وحمزة، والحسين

مات صغيراً وحمزة ولد هارون وهارون ولد سليمان الذي توفي دون عقب وعمرو ولد له درويش ودرويش ولد كلاً من منصور وسليمان، ومراد ومذحج وزهير وعمرو ومالك. أما منصور فولد عقيل وناصر وفاتك وخارجة، وعقيل ولد سهيل الذي توفي وناصر ولد هاني الذي توفي هو الآخر وفاتك ولد عدي وغازي ونصر وعمارة، وكان لعدي ولد توفي في مرحلة مبكرة، وغازي توفي هو ونصر دون عقب، وعمارة ولد قابوس وقابوس ولد سعيد الذي ترك مودود، ومودود ترك أسد وزُهير اللذين قتلا دون عقب. وكذلك الأمر بالنسبة لخارجة بن منصور الذي توفي دون عقب، وسليمان بن درويش ترك مرة، ومرة ولد المنذر وحمزة، والمنذر ولد أبو بكر الذي ولد هشام وإبراهيم. ولهشام قاسم ولقاسم إدريس وهلال، أما إدريس فمات دون عقب وكذلك هلال توفي صغيراً. وإبراهيم ولد له موسى لكنه ما لبث أن توفي، وحمزة بن مرة كان له عدي وطي لكن عدي أعقل ومات وطي ترك ولداً ما لبث أن توفي، ومراد بن درويش مات دون خلف وزهير بن درويش ترك عباس الذي توفي دون خلف، ومذحج بن درويش ولد عبدالله ولعبد الله علي ولعلي الوليد ومعروف، أما الوليد فمات دون وريث. ومعروف ترك امرأ القيس وغسَّان وجعفر، ولامرىء القيس عمرو الذي توفي دون وريث وغسان ترك ولداً وولده ترك أولاد توفوا جميعهم دون أعقاب. وجعفر ولد الحرث ومعروف وثابت، الحرث ومعروف ماتا دون عقب، ثابت كان له سالم وأبو فراس، سالم ما لبث أن توفي دون وريث وأبو فراس ترك عبد الرحمن وعبد الرحمن مات دون عقب، وعمرو بن درويش ولد إبراهيم وإبراهيم ترك ولداً توفي دون أعقاب، ومالك بن درويش ولد درويش فتوفي، وهمام بن أرسلان ولد فهم وفهم توفي دون عقب. وإسحق بن أرسلان ولد إبراهيم الذي ولد محبوب وهلال اللذين توفيا دون أعقاب. وعون بن أرسلان بدوره توفي دون عقب. أما عامر بن هاني بن مسعود بن أرسلان فولد له النعمان الذي كان له ثلاثة أولاد هم، حسام والمنذر ومعتب الذي توفي بعمر مبكر.

وحسام ترك أبا بكر، وأبو بكر ترك كل من عامر وجذيمة، وعامر ولد سليم وسليمان اللذين توفيا وجذيمة كذلك توفي دون خلف.

والمنذر ترك تميم ومسعود، ومسعود ترك تيم وغالب وحامد ومحمود، فتيم ترك عبد القادر الذي توفي دون عقب، وغالب ولد طعمة وطعمة ولد عثمان وعلياً، وعثمان توفي دون وريث، وعلي كان له كل من طعمة وعبد الرحمن وعبد الحليم، وكان لطعمة ولد اسمه علي فتوفي دون خلف وعبد الرحيم توفي بدوره وعبد الحليم ترك منصور، وحمود وساعد.

منصور وحمود ما لبثا أن توفيا مبكرين، وساعد لاقى المصير نفسه فرحل عن هذه الدنيا دون وريث، وحامد بن مسعود كذلك. أما محمود بن مسعود فكان له صالح وحمدان، ولصالح زنكي الذي مات دون خلف، وحمدان بن محمود ترك ولداً توفي فيما بعد. وتميم بن المنذر بن النعمان ترك مطوّع ومطوّع ترك امرأ القيس وهاني وموسى وبركات، وبركات توفي دون وريث. وامرؤ القيس ولد خزاعة ومطوّع وطلحة، خزاعة توفي دون عقب، ومطوّع ترك ابناً صغيراً توفي فيما بعد. وطلحة ترك مطوّع وعثمان وصدقة. الأول بينهم مات دون وريث وعثمان ترك ولداً مات بدوره، وصدقة توفي دون عقب. أما هاني بن مطوّع بن تميم فكان له علي ولعلي الحسن وللحسن الخضر وللخضر كلّ من يوسف ويحيى والحسن وقد توفوا كلهم دون أعقاب. أما موسى بن مطوّع بن تميم بن المنذر فكان له كلّ من عون وعيسى. فعون ولد مصطفى الذي ولد بدوره عون ومالك، عون توفي صغيراً ومالك توفي دون وريث، وعيسى بن موسى ولد عمراً وحسان وحسين، فحسان ولد زيداً الذي توفي وحسين توفي دون أن يلد وعمر ولد علي ولعلي بحتر ولبحتر علي ولعلي صالح الملقب بأبي الجيش وصالح ترك كلاً من بحتر ومفرج ويوسف ومسعود وشاكر وعلي.

بحتر الابن البكر توفي دون خلف، أما مفرج فكان له نجاد ومحمود الذي توفي حديث السن. ونجاد كان له عثمان وحمدان الذي قتل بدوره دون عقب، أما عثمان فله ثلاثة أولاد هم على التوالي مسعود وعبدالله ودرويش، أما مسعود فقد ولد أحمد وأسعد وخزاعة، لكنهم توفوا دون أن يتركوا أعقاب تخلفهم. وعبدالله ترك عمار فتوفي دون وريث وكذلك درويش. أما يوسف بن أبي الجيش بن علي فولد له مفرج. ومسعود بن أبي الجيش

صالح ولد له موسى الذي ولد عمر الذي ولد سليمان المتوفي دون خلف.

بالنسبة لشاكر بن أبي الجيش فقد ترك إبرهيم، ولإبرهيم عبد المحسن وإسماعيل، ولعبد المحسن صدقة الذي توفي، وإسماعيل من جهته ولد ظاهر فتوفي هو الآخر دون وريث. علي بن أبي الجيش ترك يوسف الذي ترك بشير والحسين، أما الحسين فقد توفي هو وبشير وذلك دون أن يكون لهما وريث.

مفرج بن يوسف بن أبي الجيش ولد له صالح، ولصالح كل من مفرج ويحيى وداود، أما مفرج فقد مات بوقت مبكر وهو بعد صغير، وداود توفي دون خلف ويحيى ترك عبدالله وعثمان ومفرج، أما عبدالله فله يحيى وليحيى إبرهيم الذي مات دون عقب، وعثمان ولد يوسف وليوسف كلٌ من فارس، سعيد، وسعد الدين. أما فارس فقد ترك مفرج الذي كان له ابنان هما حمدان وهاني الأول منهما توفي وهاني ترك عبدالله، الذي مات صغيراً. وسعد الدين بن يوسف ترك عثمان، وعثمان وظاهر لكن الأولين توفيا بشكل متواتر دون عقب، وأما ظاهر فكان له قاسم ولقاسم حسين الذي توفي وسعد الدين كذلك لاقى المصير نفسه فترك الدنيا دون عقب.

ومفرج بن يحيى بن صالح ترك صالح وخليل، ولصالح عز الدين ولعز الدين محمد ولمحمد مراد وقايتباي.

أما مراد فكان له ثلاثة أولاد هم صالح وقرقماس وغازي، ولصالح زين الدين، ولزين الدين عز الدين، ولعز الدين ولدان توفيا دون أعقاب. ولقرقماس حسن ولحسن فهد ولفهد حسن وغازي الذي ولد نجم ونجم ولد علي الذي ترك فارس ومنصور، وفارس ترك أفندي وأفندي توفي دون وريث وكذلك منصور. يبقى أن قايتباي بن محمد ترك عساف وعساف ترك نعمان ومحمد الأول توفي دون عقب ومحمد ولد عساف الذي توفي بدوره دون عقب.

وخليل بن مفرج بن صالح كان له ولدان هما أحمد ومحمود الذي ما لبث أن توفي أما أحمد فترك محمد الذي ترك مذحج ومذحج هذا ترك أولاداً ثلاثة، عز الدين، يوسف، ويحيى.

فلعز الدين عبد اللطيف، ولعبد اللطيف جمال الدين وناصيف، الأول أي جمال الدين توفي وكذلك الثاني دون عقب.

وكان ليوسف بن مذحج سليم وقاسم، سليم ترك يوسف ويوسف ترك شديد وإسماعيل الأول توفي شاباً والآخر توفي دون وريث. وقاسم بن يوسف ترك نجم وعلي، نجم كان له عبدالله الذي توفي صغيراً وعلي توفي دون خلف.

يحيى بن مذحج ترك فخر الدين ومحمود. أما محمود فولد له سليم الذي ولد بدوره فارس وموسى لكنهما توفيا دون وريث.

وفخر الدين بن يحيى ترك ولدين هما سليمان وغصن، غصن ترك سليمان ومحمد لكن سليمان توفي دون خلف ومحمد ولد بشير وبشير ولد محمد، الذي توفي دون أن يتزوج.

سليمان بن فخر الدين ولد حيدر الذي ولد كلاً من منصور، ومحمد، وحسين وفخر الدين. فمنصور ترك حيذر وقاسم الأول توفي مقتولاً والآخر توفي دون خلف. ومحمد ترك حمد وبشير، لكن محمد توفي، وأما بشير فترك علياً وأفندي، فلعلي بشير الذي كني بأبي علي ولبشير علي وخليل اللذين توفيا شابين، ولفندي يوسف وقاسم، يوسف الذي مات مبكراً وقاسم ترك محمد.

أما حسين بن حيدر فمات دون وريث. لكن أخاه فخر الدين ترك عباس ويونس، عباس ولد أسعد وأحمد ومنصور، وحيدر وأحمد وأمين.

أسعد وأحمد توفيا باكراً ومنصور ترك سليم وسليم، عباس، وحيدر ترك ملحم وملحم ترك مجيد ورشيد، وأحمد ترك خليل، وأمين ترك محمد ومصطفى. ويونس بن فخر الدين ترك حمود وحسن، الأول توفي شاباً والآخر ترك أولاد أربعة هم سعيد ومسعود وحمود ومحمود. وهؤلاء الأمراء ينتسبون إلى الأمير أرسلان بن مالك المنذري اللخمي الوارد ذكره.

أما حضور هذه القبيلة إلى بلادنا فيعود إلى سنة ٦٣٣م إبان تصدي الجيوش البيزنطية لجيوش المسلمين، حين أرسل قائد الجيش الإسلامي

يطلب من الخليفة أبي بكر الصديق أن ينجده بقوات جديدة، فما كان من الخليفة إلا أن وجه طلبه إلى خالد بن الوليد المخزومي الذي كان أرسله لفتح العراق وطلب إليه التوجه إلى بلاد الشام لنجدة أبي عبيدة بن الجراح ففعل كما أمره الخليفة وتوجه من الحيرة ومعه الأمير عون بن الملك المنذر الملقب بالمغرور اللخمي، وولده مسعود المدعو قحطان وجماعة كبيرة من لخم وجذم. وأثناء الطريق شاركوا بحصار البصرة، لكنهم صالحوا أهلها دون قتال وانفتحت أمامهم السبل إلى أجنادين على تخوم بلاد فارس، ولكن الأمير عون قتل أثناء المواجهات فتولى الأمر مكانه ابنه الأمير مسعود (قحطان).

وفي السنة التالية (٦٣٤م) شارك هؤلاء خالد بن الوليد في فتح دمشق والانتصار على البيزنطيين، وكذلك فعلوا سنة ٦٣٦م أثناء موقعة اليرموك الشهيرة.

عند فتح فلسطين والدخول إلى القدس سنة ٦٣٧م وحضور الخليفة عمر بن الخطاب إليها قابله الأمير مسعود وحصل على وعد منه بأن يعطى منطقة المعرة متى تم فتح بلاد الشام واستتباب الأمر فيها للعرب، بسبب الخدمات التي قدموها في أعمال الفتح، ومن أجل إتمامه.

وخلال معركة حلب وقنسرين وبعد احتدام المعارك مع الروم استطاع مسعود أن يلعب دوراً بارزاً في كافة العمليات الحربية، وقد وصل حتى أنطاكية، وسار قسم آخر بقيادة عمروٍ بن عون إلى قيسارية، ومن ثم توجهوا مع عمروٍ بن العاص نحو مصر التي استوطنوها بعدما تم الاستيلاء عليها، فنزلوا في الفسطاط وكانت يومها العاصمة. وبالنسبة لمسعود، ونزولاً عند أمر الخليفة، أقطعه أبو عبيدة بن الجراح منطقة المعرة ودير الزور فتوطن فيها مع عشيرته وأقاربه.

وسنة ٦٦٥م توفي الأمير مسعود وترك المنذر التنوخي والنعمان وتولى المنذر الإمارة، أما النعمان فتوفي سنة ٦٨٣ حيث دفن في المعرة ومن هنا تسميتها بمعرة النعمان.

وسنة ٦٩٧ تولى الإمارة بركات مكان أبيه الأمير المنذر بن مسعود وآلت الإمارة بعد ذلك سنة ٧٢٤ إلى مالك.

وعند بداية الدعوة العباسية وقف مالك إلى جانب الدعاة العباسيين، وحارب جيش الخليفة الأموي مروان بن الحكم وانضم إلى جحافل العباسيين في معركة الزاب التي انهزم فيها الأمويون، وأقرّ من قبل العباسيين على المنطقة التي كانت بعهدته حتى سنة وفاته في ٧٥١م حيث تولى ابنه الأمير النعمان مقاليد الأمور. وسنة ٧٥٦م توفي الأمير النعمان بن مالك بن بركات وله ولد اسمه عبدالله، فتولى بعده أخوه الأمير المنذر الذي قدم مع الأمير أرسلان وآلهما وعشائرهما إلى لبنان. فخلال سنة ٧٥٨م وأثناء زيارة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لدمشق، وسماعه بأخبار تتعلق بقوة المردة داخل المناطق اللبنانية، وقيامهم بمنع الداخلين إلى تلك البلاد أو عابري السبيل من التوجه نحوها، رأى أن يرسل بعض العشائر الموالية له للنزول في مناطق قريبة على أن تعمل في خدمته واقترح الأمر على الأميرين الأرسلانيين المنذر ومالك اللذين وافقا على طلبه، فأقطعهم مناطق خالية من جبال بيروت وحثهم على السكن فيها، فرحلوا أولاً إلى وادي التيم حيث أقاموا في الحصن المعروف باسم حصن أبي الجيش.

وخلال سنة ٧٥٩م قدم الأمير منذر بباقي العشيرة العربية وانتقل الجميع إلى المغيثة ثم تفرقوا في مناطق خالية مجاورة لبيروت حيث تركوا حياة البداوة وعمروا هذه المناطق في سرحمول وسن الفيل حيث سكن الأمير أرسلان، وقاموا بغزوات على مناطق المردة. وأقرهما الخليفة العباسي المهدي على المناطق التي توطنوا فيها داخل لبنان.

وسنة ٧٩٩م انتقل الأمير مسعود إلى منطقة الشويفات وبنى فيها مساكن حتى غدت قرية كبيرة، أما الأمير عمرو فقد حلّ في رأس التينة والأمير محمود في خلدة.

بعد ذلك لم تسجل حوادث بارزة تستقطب الاهتمام، إلا أنه في سنة ٨٣١م سار الأمير مسعود إلى دمشق ومنها رافق الخليفة المأمون الذاهب إلى مصر للحرب ضد الأقباط، وبعد العودة من مصر أقطعه الخليفة ولاية صفد

والمقاطعات المتصلة بها. وسنة ٨٣٧م توفي مسعود ودفن في الشويفات. وتولى بعد أخوه مالك الإمارة. لكنّ صراعاً على السلطة أرخى بظلاله بين هذا الأمير، وابن أخيه هاني. وحصلت معارك بين الجانبين في خلدة، وانهزم الأمير مالك الذي لم يبقَ أمامه سوى الرحيل، فذهب إلى مصر وسكن فيها. واستتب الأمر للأمير الجديد هاني، الذي لقّب لشجاعته بالغضنفر أبي الأهوال.

بعد ذلك سيبني الأمير نعمان سنة ٨٧٥م داراً كبيرة في مدينة بيروت ويقوم بتحصين أسوارها، وأجرى قتالاً مع المردة الذين هاجموا بيروت فانتصر عليهم. وسنة ٩١٥م قدمت بعض المراكب البيزنطية إلى رأس بيروت فهاجمها الأمير نعمان واستطاع أسر العديد من أطقمها.

وعند حصول الحرب سنة ٩٩٣م بين الفاطميين والحمدانيين في الشام، قام الأمير تميم يساعد الوالي الفاطمي على دمشق بالقتال، وأقره لأجل هذه المساعدة على منطقة الغرب وبيروت وأقطع أخاه مذحج صيدا وابن عمه الأمير هارون صور.

لكن، بعد ذلك، أقدم الحاكم بأمر الله سنة ٩٩٦م على تغيير والي دمشق وسلم أمرها للأمير سليمان الكتامي الذي تواجه مع واليها السابق الذي انتصر على سليمان وأقطع كل من ساعده من الأمراء الأرسلانيين مناطق جديدة، فكان الأمير تميم والياً على طرابلس وأقطع ابنه الأمير مطوّع الغرب وبيروت، أما الأمير غالب بن مسعود فأقطع صيدا، والأمير هارون ثبت على صور.

وبرز نجم الأرسلانيين أكثر ما يكون أثناء الحملات الصليبية، والتصدي لها، وقد كتب تاج الدين تتش السلجوقي سنة ١٠٨١م إلى الأمير شجاع الدولة رسالة يحثه فيها على مقاتلة المردة وضرب الإفرنج. وخلال السنة ١١٠٠ قامت جماعة من الأرسلانيين بنصب كمين عند منطقة نهر الكلب لمنع بلدوين من التقدم باتجاه فلسطين، لكن هذا الأخير انتصر عليهم وتابع زحفه. وبعد سنة واحدة الأمير عضد الدولة بجمع رجال من بيروت وصيدا وصور وعكا، وسار بهم إلى نهر الكلب، لكن الأمير ريموند حضر من

القدس، وقام بهجوم على القوة الأرسلانية عند مصب نهر الكلب فتراجعت نحو بيروت. وعندما بلغ الأمر شمس الملوك دقاق أقطع الأمير الأرسلاني صيدا وأمره أن يحصن صيدا وبيروت.

وحصلت سنة ١١١٠م رحى معركة هائلة بين الصليبيين والأمراء الأرسلانيين فقتل فيها خمسة من الأمراء بينهم عضد الدولة علي، وأسر ثلاثة منهم ودخل الصليبيون إلى بيروت وأعملوا السيف بمن تواجد فيها بعد أن أحرقوا قرى الغرب وبلداته، واضطر الأرسلانيون إلى دفع مبلغ من المال للحصول على الصلح.

وسنة ١١٨٦م قدم صلاح الدين لفتح بيروت، وولى الأمير جمال الدين حجي ابن كرامة التنوخي الغرب وأقطعه ما كان لأبيه. لكن الصليبيين عادوا فحاصروا بيروت واستولوا عليها فتركها الأمير حجي وارتحل منها فتسلم علي إقطاعه.

توفي عرف الدولة في ١٢٢٩م، فتولى ابنه صالح الإمارة وتلقب بأبي الجيش لشجاعته. وتفيد المصادر المكتوبة خلال تلك الفترة عن اشتراك الأمير زين الدين في معركة عين جالوت ضد التتار، هو والأمير جمال الدين حجي بن محمد التنوخي، وقام المماليك بإقرارهم على الإقطاعات التي بحوزتهم.

وهناك أمر آخر حول الحملة المملوكية على لبنان سنة ١٣٠٤ والقتال الذي حصل في كسروان، حيث الغموض يكتنف المصادر، فبينما بعضها يفسر ورود عبارة الجرديين بالقول إنهم من نصارى تلك المنطقة، يقول آخرون بأنهم ليسوا من النصارى وإنما من النصيرية، وآخرون يقولون بأنهم شيعة.

ويورد الدكتور أحمد بيضون في كتابه «الصراع على تاريخ لبنان» ما ذكره صالح بن يحيى في كتابه تاريخ بيروت «أن عساكر المماليك توجهوا يوم الاثنين الثاني من محرّم سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥م) إلى جبال الكسروانيين والجرديين»، ويوضح الدكتور بيضون أن هناك تمييزاً بين

الفريقين أي الكسروانيين والجرديين، فلا يجوز بحسب رأيه والحالة هذه أن نعتبر أن الجرديين هم أنفسهم الكسروانيون.

أما المؤرخ أبو الفداء ملك حماة الذي عاصر تلك الحملة وتوفي بعدها بحوالي ربع قرن فيقول. . . «إن الأفرم سار سنة ٧٠٥هـ إلى جبال الظنيين وأن عساكره قتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين».

لكن، إذا كانت النصيرية طائفة معروضة فإن الظنية تبقى طائفة مجهولة، لا نعلم بالتحديد من هو المقصود فيها. وكذلك بالنسبة للمارقين. وهذه الالتباسات لا تمحوها استنتاجات المؤرخين العديدة والكثيرة، لأن كلاً منهم يفسر الأمر وفق ميوله وأهوائه، انطلاقاً من خلفية عقائدية أو إيديولوجية ضيقة، وكل مؤرخ يريد لطائفته أن تكون حاضرة في الحدث التاريخ مع الغالب أو عند المغلوب، وتصح تسمية الدكتور بيضون الذي عنون هذه الطروحات «بموتى كسروان» فلا أحد ينهض من رقاده ليقول لنا من كان حاضراً ومن هم الغائبون.

سنة ١٣٨٨م حصل قتال بين أمراء الغرب وقبائل التركمان التي كانت متواجدة في كسروان فأحرقت بيروت، وأحرقت كلاً من عيناب وعين عنوب وشملان وعيتات، وهي من مناطق الغرب حيث سكنى الأرسلانيين الذين قتل من أمرائهم أحَدَ عشر أميراً. ولم ينجُ منهم سوى الأمير سيف الدين أبي المكارم يحيى بن نور الدين صالح بن مفرج، الذي نجا من المعركة بفئة قليلة وتبعه قومه إلى الاحتماء في أحد الأودية. وقد أظهر أثناء حملة الملك الظاهر برقوق على دمشق شجاعة نادرة وحصل على إعجاب برقوق الذي أمن له المساعدة للعودة إلى بلاد الغرب، حيث استطاع أن يجمع قوة في الشويفات ومن هناك سار بها نحو كسروان فالتقى بالقبائل التركمانية في محلة ذوق مكايل، وانتصر عليهم ونهب ممتلكاتهم. ولحق بهم نحو بلدة غزير التي دخلها وألقى فيها القبض على اثنين من قادة التركمان.

بعد أعماله هذه أقره الملك الظاهر على بيروت والغرب ولقبته عشيرته «بمفرج الكروب».

واستمر في قتال الصليبيين الذين نزلوا على شاطىء الدامور سنة ١٤١٣م ومنعهم من التمدد في المرحلة الأولى، ثم أتى بنجدة عن طريق دمشق استطاعت أن تجبر الصليبيين على الرحيل بعد معركة جرت في بلدة الناعمة الواقعة بين الشويفات والدامور، وضمت إليه جميع الإمارات الساحلية لما أظهره من تفانٍ في التصدي للغزوات.

وسنة ١٥١٠ توفي الأمير بهاء الدين خليل بن مفرج بن يحيى تاركاً ولدين هما جمال الدين أحمد ونور الدين محمود وذلك قبل سنوات قليلة من معركة مرج دابق.

نسب الشيعة

في الصحاح عاملة، حي من اليمن وهو عاملة بن سبأ، وفي لسان العرب قال الأزهري: «عاملة قبيلة ينتسب إليها عدي بن الرقاع العاملي، وعاملة حي من اليمن وهو عاملة بن سبأ».

وفي القاموس، بنو عاملة بن سبأ من ولد فاسط.

يقول الأمير شكيب أرسلان أن مؤرخي العرب اتفقوا على كون حمير وكهلان وأشعر وعمرٍو وعاملة هم من ولد قحطان، وأن أباهم هو شجب بن يعرب بن قحطان، وأنه من حمير التابعة وبني شيبان وقضاعة.

وأما عاملة فإنهم خرجوا إلى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عُرف باسم «جبل عاملة» ومنهم عدي بن الرقاع الشاعر، وعلى هذا يكون أصل سكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيه قوم من السكاسك، وكلاهما باليمن، والذي يحمل على هذا الظن وجود قرية تسمى السكسكية إلى الجنوب من الصرفند. وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضيع كثيرة، وقال اليعوقبي في أعلاقه وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان عند ذكر هونين، أنها بلدة في جبال بني عاملة المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور.

وورد في تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصر الإفرنج تبنين: «إن الملك العزيز خرج من مصر لنجدة المسلمين في الشام، ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل ويعرف بجبل عاملة. وقال أبو الفداء صاحب حماة في تاريخه المختصر في أخبار البشر: «وأما بنو عاملة منهم أيضاً القبائل اليمانية التي خرجت إلى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة، فمن عاملة عدي بن الرقاع العاملي الشاعر».

ونقل صبح الأعشى للقلقشدي عن الهمداني أن بجبال عاملة في بلاد الشام منهم الجم الغفير، وفي مجمع الأمثال للميداني عن فروة، هو رجل ولد عشرة من سنة وتشاءم أربعة وهم عاملة، وغسان ولخم، وجذام أخوة عاملة، فهذا الحديث الشريف يدل على أن عاملة تشاءمت، أي هاجرت إلى الشام.

وقال ابن خلدون: وأما عاملة فاسمه الحرث بن عدي وهم إخوة لخم وجذام، وإنما سمي عاملة بأمه القضاعية وهم بطن متسع موطنهم برية الشام. وقال عند كلامه عن ملوك غسان: وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة وكان منزله بالجولان، من جهة دمشق. ثم ملك الايهم بن جبلة بن الحارث، وكان له رأي في الإفساد بين القبائل حتى يغني بعضهم بعضاً كما فعل بين جسر وعاملة وغيرهم.

ولا يخفى أن الجولان متصلة بجبال بني عاملة لا يفصله عنها غير عرض مرج الحولة، وهو حوالي الميل الواحد.

ويقول الهمداني في ضفة جزيرة العرب أن ديار عاملة مجاورة للأردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر ويطل على الأردن، ويقول أيضاً «وأما عاملة فجبلها مشرف على طبرية نحو البحر».

وفي هجاء بعضهم لعدي بن الرقاع العاملي ما يدل على جهة ديار عاملة في أرض الشام إذ يقول:

ولسنا نبالي بأي عاملة التي أجدّ بها عن أرض بصرى انحدارها

أي أن التي أسرع انحدارها عن أرض بصرى وجبال عاملة منحدرة عن أرض بصرى إلى الغرب حتى شاطىء البحر.

وكما أن أصل الموارنة كان مدار تجاذب وبحث، كذلك فإن أصل الشيعة شكل عنصراً لهذه الأمور. ومجلة المشرق عينها طرحت الموضوع بتوقيع الأب هنري لامنس في المجلد رقم ٣٠ الصادر سنة ١٩٣٠ تحت عنوان «العناصر الفارسية في لبنان»، ثم نشر تحت اسم «عناصر المتاولة في جبل عامل».

فأصول المتاولة، تقول المشرق، لا تزال موضوع جدل بين المستشرقين، إذ يعتبر فون أوبنهيم أنهم بقايا القرامطة الأقدمين الذين نزلوا سوريا فتركوا أحفادهم فيها.

بينما ينسبهم بول كازانوڤا إلى الإسماعيليين، في حين أن الرحالة ستيزن يقول أن تطابقهم مع شيعة إيران يرجح أنهم أتوا من بلاد فارس. وهناك من يشبه بينهم وبين الأكراد الساكنين مناطق العراق العليا.

أما رينان فيقول بأنه عرف فيهما عائلتين في بلاد بشارة أو الجليل الأعلى: «فيهما ذاك العنصر الإيراني (الكردي) المجيد الذي نقله صلاح الدين».

وقال الأب لامنس في مقالته: «إنني لم أنشر هذا الفصل لأميز طائفة عن طائفة في هذا الجبل، وإنما نشرته كما يبدو للباحث من أن سكان هذه المنطقة الواقعة بين الشوف وفلسطين ووادي التيم، لم يكونوا في عهد المعنيين ومن تقدمهم من الأفراد إلا من صفوة المتاولة»، كما يتضح من قول مؤرخي الدروز في «تاريخ الحركات في لبنان» لأبو شقرا... «لما استوطنت عشائر الدروز في بلاد الشوف واستولت على مقاطعاتها كانت عشائر المتاولة مستوطنة إقليم جزين ومستولية عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان وإقليم التفاح، وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاولة».

لقب (متاولة)

هذا اللقب أو هذه اللفظة، متاولة، هي جمع متوالي، مشتق على غير قياس من تولي أي اتخذ ولياً متبوعاً من ولائهم لأهل البيت النبوي الشريف. كان يطلق عليهم بعد اسم الشيعة في جبل عامل اسم العلويين منذ نشأت فرقتا العلوية والعثمانية في أواخر عصر الخلفاء الراشدين، بحيث أن اتباع علي عرفوا بالعلويين، بينما اتباع عثمان بالعثمانيين.

وبقي اسم العلويين في هذه الديار يرادف الشيعة حتى نسخ الأول لقب متاولة وحل محله في الجيل الحادي عشر للهجرة.

وينقل الشيخ أحمد رضا عن الأمير حيدر الشهابي في تاريخه قوله: «... وكان حكم القرايا التي بالقرب من صور رجلاً علوياً منشؤه العجم، وكان يحكم على ستين ألف من العلويين».

ويعتبر بارنيوس في روايته أن المتاولة ظهروا سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) في بعض السالنامات التركية. أما المحبي في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» فيقول أن أهل جبل عامل رافضة. أما ما ذكر عن أصلهم العجمي فأمر يرفضه لأن مذهب الشيعة عرف في جبل عامل قبل إيران بمدة طويلة، ويذكر أن أبا ذر الغفاري الذي نفاه الخليفة عثمان بن عفان إلى الشام كان ينشر مذهبه في العلوية في الشام وكان يخرج إلى الساحل، فكان له مقام في الصرفند القريبة من صيدا، وآخر في ميس المشرفة على غور الأردن وكلتاهما من جبل عامل.

بلاد الشيعة

عُرفت بلاد المتاولة باسم جبل عامل وكذلك باسم بلاد بشارة، نسبة إلى أحد حكامها في العصور الوسطى قيل أنه من أمراء بني معن، وقيل إنه يدعى بشارة بن مقبل القحطاني. وكل ذلك لم يقم عليه برهان، والذي يدور على الألسن أن مركز إمارته كان في قرية زبقين من أعمال صور.

وتقسم بلاد بشارة إلى قسمين: الشمالية ونهايتها في شمال نهر الأولي شمالي مدينة صيدا، ويفصلها عن الجنوبية الليطاني الذي يصب في المتوسط شمالي مدينة صور ويعرف بالقاسمية، بسبب وجود مزار يسمى بالقاسم. ويقال أنهم من رجال الأسرة العفيرية أما بشارة الجنوبية فنهايتها في جنوب نهر القرن الجاري شمالي طيرشيحا وجنوبي قرية الزيب.

ويحد هذه المنطقة من الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق أرض الخيط أو سهل الخيط إلى عين ديشوم، فإلى الوادي المسمى يعوبا إلى نهر الفجر ثم الوزاني شرقي قرية سرده وبلدة الخيام، إلى كوكبا فلبايا وسحمر ومشغرة. وعلى هذا التحديد يدخل عامل جملة قرى خارجة عنه، منها قرية الزيب قرب البحر في الجانب الغربي الجنوبي من نهر القرن.

ويضيف الشيخ أحمد رضا أن من بلاد المتاولة بعلبك، وهي التي كانت في سلطة الأمراء آل حرفوش أعظم الأمراء الشيعة، حيث كانوا أصحاب الحول والطول فيها إلى عهد منفاهم منها أواسط القرن الثالث عشر حيث أصبحت فيما بعد قضاءً معروفاً باسمها. ومن بلادهم مقاطعة وادي علمات في كسروان مقر المشايخ الحمادية، حكامها إلى عهد بشير الثاني. ويورد الشيخ أحمد رضا أسماء قرى عديدة يقول أنها ألحقت بجبل لبنان.

في المجال ذاته يعطي الشيخ سليمان ظاهر تحديداً مشابهاً لما هو وارد أعلاه إنما مع بعض التعديلات الطفيفة، فيعتبر أن جبل عامل قطر معروف مشهور يحده جنوباً نهر القرن الجاري جنوبي طير شيخا وشمالاً نهر الأولي وشرقاً أرض الخيط، والحولة، غرباً البحر المتوسط.

وهو من قديم وحديث، يتابع الشيخ ظاهر، أرض شيعية محضة، وكل من له أدنى إلمام في التاريخ وأقل إطلاع على كتب الرحلات والتراجم يعلم ذلك. وما هبطه غيرُ المسلمين إلا في حوادث المحن. ويؤكد أن صيدا وجزين ومرجعيون داخلة في جبل عامل.

ويقول في معجم قرى جبل عامل عن هونين بأنها قائمة على جبل شاهق غربي الحولة على مسافة قريبة من الخالصة، وبضعة أميال من بيت معكة (إبل القمح) جنوباً وبينها وبين بانياس شرقاً مسافة صغيرة، تشرف على بلاد عاملة وفلسطين وأطراف الجولان وحرمون ولبنان وتنبسط أمامها سهول الحول الفسيحة. بدء عمرانها مجهول ولا يستبعد أن يكون قديماً، فإن موقعها بين بيت معكة وقادش وحاصور ودان (تل القاضي) وغيرها من الممالك القديمة ومن وقوعها في الجليل مع منعتها. وقد ذهب ربسنون إلى القول بأنها هي بيت رحوب المذكورة في الكتاب المقدس.

نسبة المشايخ الحمادية

بعد أن تكلمنا عن الشيعة بشكل عام وحدود جبل عامل، لا بد من إعطاء لمحة بارزة عن نسبة المشايخ الحمادية الذين يعودون بأصلهم إلى

حمادة العجمي، الذي ولد ثلاثة أولاد، هم سرحال وأحمد الملقب بأبي زعزوعة وديب.

الابن الأكبر سرحال ولد حسيناً ولحسين أربعة أولاد، سرحال وإسماعيل وإبرهيم وعيسى، ولإسماعيل ثلاثة أولاد، عبدالسلام وعبدالملك وأبا النصر.

وحمادة هذا من بخارى الكائنة في بلاد العجم (فارس) ويقال بأن الشاهنشاه وبعد خروج هذه الجماعة عليه ضربها بشدة مما اضطر من بقي من أفرادها أن يتوجه إلى جبل لبنان والنزول فيه في محلة الحصين الواقعة في بلاد جبل على تخوم فتوح كسروان. ومن هناك توجهت هذه العشائر إلى قهمز في أعالي جرود كسروان، ومن هناك توزعت في جبة المنيطرة ووادي علمات، وسار قسم من العشيرة نحو بلاد بعلبك حيث تولوا قرية الهرمل.

أما أولاد ديب فقد تولوا مقاطعة الضنية، وزوج ابنتيه إلى مقدمي جاج المسلمين اللذين توليا أمور جبيل لكنهما كانا على خلاف مع والي غزير الذي طلب من أبناء حمادة قتلهما لكن هؤلاء لم ينفذوا طلبه، ولكن أحد إخوتهم الصغار وهو الشيخ سرحال عرض على صاحب غزير أن ينفذ هو المهمة، وهكذا كان، فأقرّ على بلاد جبيل وترك خلفاً له ابنه حيناً.

وبعد ذلك ارتحلوا إلى وادي علمات، لكن المناوشات لم تكن لتهدأ بينهم وبين آل الشاعر المتواجدين في تولي منطقة البترون بعد انسحاب بني الشاعر.

وتوزعت المناطق كالتالي: إبراهيم وعيسى أخذا بلاد جبيل ووادي علمات وفتوح كسروان وجبة المنيطرة ولاسا في أعلى المنيطرة وأقاما لهما مزارع في الكورة وزاوية زغرتا.

أما أبناء إسماعيل وهم عبدالسلام وعبدالملك وأبو النصر فأخذوا بلدة شمسطار في بلاد بعلبك.

وسنة ١٤٧٤م حصلت موقعة بين المشايخ الحمادية ومقدم بشري عبدالمنعم الذي قتل، لكن أهالي بشري عادوا فهاجموا الحمادية وقتلوا حمادة ومن أدركوه من جماعته في محلة يقال لها الحرايص.

الفصل الثامن

بلاد الشام
و
قبائلها

نسب الحمدانيين

بلاد الشام

ستتناول القبائل الأساسية التي برزت في بلاد الشام خلال المرحلة التي ابتدأت مع الفتوحات العربية والعصور التي تلتها وكان لها أبلغ الأثر في التراكيب الاجتماعية التي سادت فيما بعد، حيث أن قسماً من هذه القبائل التي توطنت في مناطق سوريا استطاعت أن تكون لنفسها دويلات أو إمارات حكمت لفترة من الزمن ولعبت دوراً هاماً في التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عاشتها المنطقة، أو واجهتها، خلال مراحل تطورها.

الحمدانيون

يتحدر الحمدانيون من قبيلة تغلب، ويعودون بنسبهم إلى حمدان بن حمدون العدوي التغلبي، صاحب قلعة ماردين، وقد ترك ابنه عبدالله والحسين فتوى الأول مكان أبيه. وبرز هؤلاء في مناطق سوريا الشمالية في مجال الحكم والسلطان.

ودافعوا عن المناطق المناطة بهم بوجه الغزوات التي كانت تقوم بها بعض القبائل الكردية، خاصة باتجاه منطقة الموصل في أرض الرافدين، حيث أقر الخليفة القادر بفضل أبي الهيجاء وقوته وأقطعه بالإضافة إلى المناطق التي كان يحكمها أو يشرف عليها أماكن جديدة مثل نهاوند والسيروان وشاهان.

ثم كان لأبي الهيجاء سبعة أخوة هم، أبو العلاء وأبو السراي والحسين وسعيد ونصر وداود وإبرهيم، وقد برز منهم الحسين الذي اشترك في القتال ضد القرامطة، وكذلك في جملة مناوشات ومعارك جرت بين الحمدانيين وبني كلب وطيء وأسد وغيرهم كثر.

وأثناء الثورة على الخليفة القاهر قتل أبو الهيجاء، وربما أن هذا الأمر أثر علي العلاقات التي كانت سائدة بين الخلافة العباسية والحمدانيين. ولكن الخليفة المقتدر أصلح الأمور مع هؤلاء القوم وسلم الحسن ابن أبي الهيجاء الملقب بناصر الدولة ولاية أبيه وأعماله.

وشمل السلطان بني حمدان مناطق الجزيرة الفراتية امتداداً حتى ديار بكر وأرزن ناحية الشمال.

وتشجيعاً لهم منحتهم الدولة العباسية لقب سيف الدولة، أي أنه يحمي الدولة. ولكنهم كانوا تحت سيطرتها وإشرافها، وقد امتدت سلطتهم على شمالي سوريا وقسماً من بلاد الأرض في كيليكيا، وشمالي العراق.

لكن الدولة البيزنطية استطاعت سنة ٩٦٧ احتلال قسم كبير من سوريا الشمالية، وفرض السيطرة المؤقتة على ملك الحمدانيين، ولم يستطع الحمدانيون من استرجاع حلب إلا حوالي سنة ٩٧٧م.

وخلال الفترة الواقعة ابتداءً من سنة ٩٩١م بدأت تلوح أخطار في المناطق الجنوبية سببها ظهور الدعوة الفاطمية، وقد أشعر الحمدانيين ذلك الأمر بالخطر الشديد فحاولوا إقامة تحالف مع البيزنطيين لدرء الأخطار المتوقعة.

عصر المجد والازدهار: اشتهر أحد الحكام وهو علي بن عبدالله بن حمدان، وكان استولى على حمص وحلب، وأحاط نفسه ببطانة من الشعراء والأدباء من بينهم المتنبي وأبو فراس الحمداني وصاحب كتاب الأغاني، وكلنا يعرف القصائد التي مدح فيها المتنبي سيف الدولة هذا.

المرداسيون

لم تدم دويلة المرداسيين التي نشأت على أنقاض الدولة الحمدانية أكثر من خمسين سنة، مؤسسها يدعى صالح بن مرداس من قبيلة كلاب التي كان موطنها مناطق الجزيرة الفراتية منذ العصور السابقة للإسلام.

ولقد وقف صالح هذا ضد الدعوة الفاطمية والناشطين لها، ما جعل أحد دعاتها يخفق أول الأمر.

وحصلت مشاكل متعددة بين مرتضى الدولة الحمداني وصالح المرداسي الذي استطاع أن يحسم الأمر معه ويرغمه على الفرار.

وأقام صالح علاقات مع حسان بن مفرح أمير بني طيء الذي كان يتوطن في فلسطين، وسنان بن عليان أمير قبيلة بني كلب في بلاد حوران، وأقام معهم تحالفاً ضد الخليفة الفاطمي، وحكمه في بلاد الشام، واقتسموا البلاد فيما بينهم على الوجه التالي:

١ ـ صالح تولى البلاد بين حلب وعانه.

٢ ـ سنان تولى مناطق دمشق وحوران.

٣ ـ حسان تولى الرملة حتى مصر.

وهاجمت قوات التحالف الثلاثي هذا القوات الفاطمية المتواجدة في نطاق عمل كل منهم وتغلبوا عليها. وإزاء ذلك أرسل الخليفة الفاطمي قوات بقيادة أحد الأتابك ويدعى أنوشتكين الدرزي، الذي استطاع إلحاق الهزيمة بهم على بحيرة طبريا.

بنو المسيب

ينتسب بنو المسيب إلى أبو المكارم مسلم بن أبي المعالي قريش بن أبي كامل بركة بن أبي المنيع قرواش بن أبي الزواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل، وهذه القبيلة أتت من البحرين في الخليج العربي إلى بلاد ما بين النهرين ثم إلى جزيرة الفرات.

ولقد ورث أصحاب الدولة هؤلاء من بني المسيب دولة الحمدانيين في الموصل ثم في حلب واستمرت في موقع السلطة ما يقارب المئة عام ويزيد، وشهدت فصولاً من مراحل السيطرة البويهية والسلجوقية.

ولقد تولى أمراء هذه الدولة حماية مناطق غربي الفرات واستطاع قرواش، أحدهم، الدخول إلى الكوفة ومنازل بني خفاجة.

واستطاع أحد وزراء بهاء الدولة البويهية من فك الحصار عن المدائن، وجمع جيشاً التقى ببني عقيل وأسر المتواجدين في نواحي الكوفة واستطاع إنزال الهزيمة بهم وقتل وأسر خلقاً كثيراً، ونهب مطارحهم.

ولكن قرواشاً خطب فيما بعد للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في جميع المناطق التابعة له والتي تشمل الأنبار والموصل والمدائن والكوفة، مما أجبر القاضي العباسي على مغادرة الكوفة والنزول نحو بغداد. لكن تهديد البويهيين بالتدخل جعله يعدل عن خطوته ويعيد الخطبة التي تدعو للخليفة العباسي. وبلغ قرواش شأناً مهماً، واستطاع التصدي للسلاجقة الذين تغلبوا على الخليفة العباسي، ولكن أياً من الفريقين لم يتوصل إلى نتائج حاسمة.

ولكن قبائل الغز التركية عادت وهاجمت الموصل وحولتها إلى ضرائب بعد أن أمعنت في النهب والتصدي. ولكن العرب عادوا وانتصروا وأخرجوا هذه القبائل الغازية من الموصل.

وتمكن زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد من انتزاع الحكم من أخيه وقد حجر عليه. وبعد وفاة أبو كامل تسلم السلطة علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران بن المقلد وقد أيدته جميع فروع القبيلة ولم يكن أمام قرواش سوى القبول بالأمر الواقع فأذعن له.

واستولى قريش بعد ذلك على مدينة الأنبار، لكنه ما لبث أن غادرها مهزوماً أمام هجمات السلاجقة الذين كانوا قد هزموا الدولة البويهية في بغداد. وزحفوا على الموصل بقيادة البساسيري، وقد جُرح قريش، واستطاع البساسيري الدخول إليها فخطب باسم الخليفة الفاطمي.

بنو نمير

لم يكن لهم شأن يذكر وتتلخص أمورهم بما يلي:

١ ـ هذه القبيلة المسماة بني نمير كانت تنزل في منطقة ديار بكر.

٢ ـ أول ولاتها وثاب بن سابق النميري ودعي بصاحب حران، وعطير صاحب الرها.

٣ ـ قام ابن وثاب بغزوة إلى ديار بكر بعد أن نزل فيها نصر الدولة بن مروان.

٤ ـ استطاع ابن وثاب وابن عطير الدخول إلى السويداء بعد الانتصار على الحامية البيزنطية فيها.

٥ ـ الدخول باتجاه الرها والعودة بالأسلاب والغنائم الكثيرة.

٦ ـ شبيب بن وثاب صاحب حران راح يخطب للخليفة العباسي بدل الخليفة الفاطمي، ولكن بعد تهديد الفاطميين له أعاد الخطبة إليهم.

٧ ـ تولى السلطة بعد شبيب ابنه منيع.

بنو منقذ

ينتسب بنو منقذ إلى علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، وكانت حدود هذه القبيلة تصل إلى نهر العاصي حيث الجسر الشهير والذي يحمل اسمهم (جسر بني منقذ) وقد تولى بعده ابنه أبو الحسن علي الملقب سديد الملك، ونزل في منطقة شيزر، وحاول شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل أن يسيطر على القلعة لكن ابن منقذ غره بالمال، ما دفعه إلى العدول عن خطته.

ويقال بأن السلطان السلجوقي ملكشاه أقر صاحب شيزر على بلاده بعد أن سلمه اللاذقية

وتبقى منطقة شيزر هي الأهم من حيث مكانتها، وقد تعرضت خلال بعض الفترات لهجمات الإسماعيلية وأعراب بني كلاب، ولم يسلم كذلك من تصرفات الملوك البيزنطيين الذين اعتدوا عليها، مما دفعها إلى الاستنجاد بعماد الدين زنكي حيث أرسل العديد من القوات لشن الغارات على الجيش البيزنطي حتى اضطرته في نهاية الأمر إلى الانسحاب.

وخلال عهد نور الدين زنكي حصل خلاف بين أبناء سلطان قلب وأولاد عمهم الذين أرغموا على ترك شيزر، وقد رفعوا أمرهم إلى نور الدين لكنه لم يستطع أن يفعل لهم الشيء الكثير لانشغاله بمحاربة الصليبيين، وقد عرف بأن أولاد سلطان قلب يتحالفون مع الصليبيين أعدائه مما زاد الأمور تعقيداً وضاعف نقمته عليهم.

ويحكى أن شيزر هذه تعرضت لتخريب شامل على أثر زلزال ضربها فسارع الإسماعيليون لوضع يدهم عليها، وقد طردوا الصليبيين الذين كانوا سبقوهم. ولكنّ السلطان نور الدين زنكي طرد هؤلاء الإسماعيليين، وقام

بإعادة ترميمها ولم يولِ عليها من أصحابها القدماء وأقطعها لأخيه في الرضاعة مجد الدين أبي بكر بن الداية. واعتبرت هذه الحوادث نهاية حكم بني منقذ على منطقة شيزر.

الفصل التاسع

الاحتلال العثماني للشرق

معركة مرج دابق

دخل السلطان سليم إلى الشرق فاتحاً بعد انتصاره على المماليك في معركة مرج دابق شمالي حلب، وفتحت أمامه هذه المعركة أبواب الشرق، خاصة بعد مقتل سلطان المماليك قانصو الغوري.

ولا بد لنا من القول إن مرج دابق الحاصلة خلال السنة ١٥١٦م أتاحت للعثمانيين سيطرة على منطقة الشرق سوف تستمر خلال أربعة أجيال لن تنتهي، إلا حلول العام ١٩١٨م بعد الحرب العالمية الثانية.

إن التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية البعيدة الأثر التي أدخلتها هذه المراحل المتعاقبة من السيطرة العثمانية على مقدرات الشرق أفرزت معطيات جديدة سوف نحاول إبرازها من خلال الحديث عن أنساب القبائل التي سبق لنا أن ذكرناها خلال مراحل توطنها في لبنان وحتى عشية مرج دابق، كون هذه الجماعات الاثنية والعناصر البشرية هي التي ستشكل مجموع المواطنين إن كان في بلدان الشرق أو في لبنان، متوقفين عند أنساب المردة والشهابيين والمعنيين والأرسلانيين والشيعة، الذين ورد القسم الأول من أنسابهم خلال فصول سابقة ومضيفين عليهم نسب العائلة الجنبلاطية لما لها من أهمية دور لعبته في تاريخ لبنان.

لبنان بعد مرج دابق

أمراء المردة ومقدموهم

بعد انتصار الأتراك على المماليك وعودة الهدوء إلى المنطقة ومن ضمنها لبنان خلال ولاية الأمير عساف التركماني في بلاد كسروان وجبيل، قدمت جماعات من الشيعة إلى فاريا وحراجل وبقعاتا من مناطق بعلبك والبقاع.

وكذلك نزح بعض النصارى من طرابلس باتجاه الكفور وفتوح كسروان. وسجل قدوم الشيخ حبيش من يانوح إلى غزير، وقدم شاهين بن رعد وقومه من بلاد المشرق إلى حصرون فدعيوا بني مشروق.

سنة ١٥١٩م وبعد وفاة المقدم عساف بن سيفا وترك ولداً يسمى حنا، فقدم كمال الدين بن عبد الوهاب الأيطوي المعروف بابن عجرمة وتزوج ابنة الشيخ علوان بن حسام الدين بن قمر البشراني.

وسنة ١٥٢٨ أرسل الأمير منصور العساف المقدم عبد المنعم وابني حبيش مع قوة مقاتلة إلى طرابلس حيث أقدموا على قتل آغا مع ابنيه.

وحصلت خلافات بين هاشم العجمي ومالك اليمني شيخ العاقورة واتفق الأول مع أهل المنيطرة وكمنوا لمالك وقتلوه، ففرّ أخواه إلى دمشق واشتكيا هاشماً إلى واليها الذي طلب من الأمير منصور إلغاء القبض على القتلة الذين ولوا الإدبار إلى الكرك في بعلبك، فما كان من عبد المنعم الساعي في أثره إلا أن أقدم على إحراق لاسا. وأخيراً أقدم الأمراء الحرافشة على قتل هاشم بناء لطلب عبد المنعم الذي وعدهم بقتل الأمير منصور بالمقابل. وقد علم الأمير منصور بالأمر وأقدم على قتل عبد المنعم وأبناء عمه.

وبعد قتل عبد المنعم انقرض مقدمو بشري الذين ولآهم آل سيفا وانتقلت المقدمية إلى أهالي عين حليا خلفاء قمر. وبعد زواج عز الدين العيني من ابنة حسام الدين بن أيوب بن قمر رزق منها ابناً أسماه حسام الدين، وولد لحسام الدين موسى ورزق الله وداغر وعتينا، وقد تسلموا الولاية على جبة بشري.

وسنة ١٥٧٢م فرضت ضريبة القشلق فأدت ذلك إلى خراب قرى ومزارع كثيرة بعد عجز أصحابها عن تسديد قيمة الضريبة المذكورة.

وسنة ١٥٧٩م تولى يوسف باشا سيفا ولاية طرابلس وأرسل أناساً سنة ١٦٠٠م إلى بلاد جبيل لقتل مقدمي جاج لأنهم تحالفوا مع الأمير فخر الدين وتولى بعد ذلك شلهوب الحسناتي من قبل يوسف باشا سيفا على جبة بشري فولد عتينا، ويوحنا، ومخائيل وبقي مترئساً الجبة حتى وفاته. وخلال السنة ١٦١٨م تولى أبو نادر الخازن بلاد جبيل من قبل الأمير فخر الدين المعني الثاني، أما بلاد البترون فسلمت للمقدم يوسف الشاعر. وسنة ١٦٢١م تولى أبو صافي الخازن جبة بشري وطرد المقدمين المعنيين من قبل ابن سيفا.

وفي الوقت نفسه امتدت سلطة الأمير فخر الدين لتشمل بلاد جبيل والبترون والجبة من قبل والي طرابلس عمر باشا، لكنه ما لبث ان أعاد السلطة إلى يوسف سيفا الذي أتى بمظالم كثيرة مما أدى إلى تشتت الناس في جهات دمشق وحلب، وذلك هرباً من سياسة ابن سيفا التعسفية.

وسنة ١٦٩٢م قام علي باشا اللقيس وسلم بلاد جبيل لحسين آغا الحسامي، وأما بلاد البترون فتسلمها المقدم قايد بيه الشاعر، وتسلم الزاوية وجبة بشري الشيخ مخائيل بن نحلوس. وأخيراً، آلت بلاد جبيل لحسن آغا النوري.

ولم تنصرم السنة ١٦٩٣م حتى قرر ارسلان باشا تسليم بلاد جبيل للأمير حسين ابن الأمير صعب الكردي، وبلاد البترون المقدم قايد بيه بن الشاعر المار ذكره.

وبعد نحو من مائة عام، أي بحدود ١٧٩١م، توفي الشيخ يوسف

بولس الدويهي شيخ اهدن دون عقب فتولى مكانه الشيخ بطرس كرم الهدناني وأولاده من بعده.

وسوف نورد لمحة في نسبة بني الشدياق الموارنة كنموذج تطبيقي لهذه الدراسة.

ينتسب بنو الشدياق إلى بطرس الذي لقّب بالشدياق وهو من سلالة رعد الحصروني وقد خلف ولدين هما فهد والشدياق شاهين المعروف بالمشروقي وشاهين هذا كان له أربعة أولاد: يوسف ومطر وفاضل وعواد.

ويوسف كان لفترة طويلة بين ١٥٧٤م و ١٦١٢ مقدماً على جبة بشري وترك رعد ونعمة وجرجس وداود.

ورعد ولد شمعون وخاطر، وشمعون ما لبث أن توفي، أما خاطر فولد أبو شلهوب مسعد ومسعد ولد زيادة وزيادة ولد مبارك ومبارك ولد مسعد الذي تتلمذ في عين ورقة ثم في مدرسة روما المارونية ثم أصبح بطريركاً على الطائفة المارونية. وتزامن ذلك مع نشوب ثورة الفلاحين الموارنة ضد مشايخ آل الخازن في كسروان سنة ١٨٥٨م. ثم أخوه الخوري بطرس تلميذ مدرسة روما هو الآخر والذي سيرقى إلى الرتبة الأسقفية فيما بعد. لكنّ نعمة وجرجس وداود توفوا دون عقب.

أما فاضل بن شاهين فكان له شمعون الذي من سلالته نعمة الله الذي أصبح مطراناً على طرابلس باسم يوسف سمعان السمعاني القاصد الرسولي إلى المجمع اللبناني في حراش سنة ١٧٣٦م. أما فهد بن رعد الحصروني فولد له شمعون ورعد. شمعون ترك حاتم وأنطون وحاتم ترك ولدين أحدهما دخل الرهبنة والآخر أنطوان ترك سعادة.

أما رعد بن فهد فولد له جعفر الذي لقب بالحاج وهذا ترك أبي عون وشاهين، وأبو عون لم يخلف سلاله.

أما شاهين فولد له فهد وفهد ترك بطرس وجعفر. بطرس ترك ظاهر وخطار وبطرس هذا هو الذي حمل لقب الشدياق وأعطاه لعائلته.

أما أبناء بطرس فقد توفوا دون خلف.

وجعفر ترك منصور ومنصور ترك فارس ويوسف وسليمان، فارس ترك كنعان وجفّال وأنطوان ويوسف، جفال ولد يعقوب الذي ولد سليم.

وأنطوان ولد عبدالله.

ويوسف بن منصور ولد طنوس الشدياق المؤرخ الشهير وصاحب كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، ومنصور وأسعد وغالب وفارس.

وطنوس ولد له فارس ونجا ومنصور ترك ظاهر وبشارة وغالب ترك يوسف وفارس ترك فايز وسليم.

وسليمان بن منصور ترك عباس وخليل وشبل وعباس ترك داود وحنا ومنصور وخليل ترك إبراهيم وفهد ولطوف وجرجس وسليمان. وشبل ترك سليم.

وهؤلاء الشدايقة ينتسبون إلى سلالة فهد بن شاهين بن الحاج جعفر بن رعد بن فهد بن رعد الحصروني وينتسبون إلى منصور الشدياق بن جعفر أخي الشدياق بطرس.

الأمراء الشهابيون

توفي الأمير منصور سنة ١٥٣٥م وتولى مكانه ابنه الأمير ملحم الفقيه الذي تزوج بابنة الشيخ محمد الدمياطي وترك ابناً سماه منصور الذي تولى الإمارة بعد وفاة والده سنة ١٥٦٤م وبقي حتى حدود السنة ١٥٩٧م حيث توفي تاركاً كلاً من الأميرين علي وأحمد. وقد خلف علي والده وتزوج من ابنة الأمير يونس قرقماز المعني التي ولدت له محمد وقاسم. وهو الذي أقام التحالف مع الأمير فخر الدين المعني.

وسنة ١٦١٦م توجه الأمير محمد الشهابي إلى حصن بانياس وأقام فيه محافظاً مع الأمير علي بن الأمير فخر الدين المعني الثاني.

وبعد عودة فخر الدين من توسكانا حضر إليه الأمير علي الشهابي إلى صيدا وهنأه بسلامة الرجوع.

وخلال العام ١٦٢٠م عندما قرر الأمير فخر الدين المعني قتال آل

سيف تحالف الشهابيون معه وانتصروا على ابن سيف في عكار ولاحقوه حتى حصن الأكراد.

وخلال معركة مجدل عنجر سنة ١٦٢٣م التي انتصر فيها المعنيون وأميرهم فخر الدين الثاني على والي دمشق، كان الأمراء الشهابيون إلى جانب الأمراء المعنيين.

وفي ١٦٢٥م توفي الأمير محمد دون عقب، وسنة ١٦٢٦م توفي والده فآلت الولاية إلى الأمير قاسم ابنه، وتولى الأمير حسين الشهابي من ناحية أخرى مكان أبيه المتوفي سنة ١٦٢٩م وقاما بمساعدة الأمير علي المعني لقتال الكجك أحمد في حاصبيا وكسروان وتزوج الأمير حسين الشهابي ابنة الأمير ملحم المعني. واستطاع الشهابيون والمعنيون إنزال الهزيمة بعلي علم الدين اليمني سنة ١٦٥١م في وادي القرن وكان قد أرسله بشير باشا والي دمشق لقتالهم. وبعد وفاة الأمير قاسم تولى مكانه الأمير منصور.

وخلال فترة حكم مرتضى باشا لولاية دمشق بلغه أن الأمراء الشهابيين راحوا يشجعون أهل دمشق على معارضته ومنعه من الدخول إليها، وأرسل عندها الصدر الأعظم محمد باشا الكبرلي ابنه أحمد لمحاربة الأميرين منصور وعلي الشهابيين، وانضم إلى القوى المهاجمة ولاة القدس وغزة وطرابلس وآل طربيه وآل علم الدين وبعض مقدمي جبل لبنان.

وأمام هذه الهجمة الكبيرة اضطر الأميران إلى التوجه نحو جرود بلاد كسروان في منطقة قهمز، حيث نزلا مع عيالهما عند مشايخ آل حمادة القيسية. وفي الوقت نفسه، كانت مناطق وادي التيم وراشيا وحاصبيا طعمة للنيران التي أشعلها المهاجمون في ممتلكات ومزارع الشهابيين. وأتلفت البيوت كذلك في مرجعيون والبقاع. وسلمت الولاية في المناطق المذكورة إلى الأمير علي علم الدين والمقدم زين الدين الصهيوني ابن أخيه.

وخلال هذه المرحلة قام العسكر العثماني بسلسلة أعمال نهب ومضايقات، وقتل بحجة البحث عن الأمراء المختبئين ودخلت العساكر نحو مناطق كسروان بصحبة جماعة من اليمنية ووالي طرابلس، لكن الأميرين

منصور وعلي كانا في هذه الأثناء في منطقة الجبل الأعلى قرب حلب حيث مكثا هناك لست سنوات.

وسنة ١٦٦٦م عاد الأميران إلى وادي التيم فأقام منصور في حاصبيا، وعلي في راشيا.

خلال السنة ١٦٩٣م توفي الأمير موسى وترك حيدراً الذي تولى بعده ابنه الأمير نجم. وذهب هذا إلى الشوف ففرّ الأمير موسى اليمني من دير القمر وتولى مكانه الأمير أحمد المعني الذي توفي سنة ١٦٩٦م وانقطعت بوفاته السلالة المعنية، فانتقلت ولاية جبل لبنان إلى الأمراء الشهابيين، وتولى الأمير بشير ابن الأمير حسين أمير راشيا إمارة الجبل وهو، ابن أخت الأمير أحمد المتوفي.

وسنة ١٧٠٥م، بعد وفاة الأمير بشير، تولى مكانه الأمير حيدر موسى الذي ترك الأمير بشير وعمر الذي ولد من زواجه الثاني.

وبعد وفاة حيدر سنة ١٧٣١م ترك كلاً من ملحم وأحمد ومنصور، ويونس وعلي وحسين، ومعن وبشير وعمر. وقد تولى بعده ابنه الأمير ملحم الذي ترك قاسماً.

وسنة ١٧٤٩م توفي الأمير معن دون عقب، وتزوج ملحم من بنت الأمير نجم فولدت له يوسف. وبعد وفاة الأمير ملحم سنة ١٧٦٠م ترك كلاً من محمد ويوسف وقاسم وسيد أحمد وأفندي وحيدر. وبعد سنة ولد للأمير أحمد ابن سماه حيدراً. وبعد ذلك ولد للأمير قاسم عمر ابن دعي حسن وآخر دعي بشير (الكبير)، وبعد قاسم عمر جاء ولداه حسن وبشير.

وخلال السنة ١٧٧٠م توفي الأمير أحمد تاركاً وراءه الأمير حيدر الشهابي الذي سيصبح فيما بعد مؤرخ بلاط الأمير بشير الشهابي.

وخلال سنة ١٧٧٤م توفي الأمير حسين حيدر تاركاً وراءه الأمير جهجاهاً.

وسنة ١٧٧٨ وُلد للأمير يوسف ابن سماه حسين وآخر سمي سعد الدين وولد ثالث سمي سليم.

وولد للأمير بشير عمر ولد سماه قاسماً وآخر سمي خليل.

لن ندخل هنا في تفاصيل العهد الشهابي الذي تخللته حروب وفتن بين الأمراء الشهابيين والمناصب، مثل الصراع الذي حصل بين أولاد الأمير يوسف ومدبريهم جرجس وعبد الأحد باز من جهة، والأمير بشير الكبير من جهة ثانية، وانتهى بسيطرة الأمير بشير على الإمارة ومد سيطرته إلى بلاد جبيل، ثم صراعه مع الشيخ بشير جنبلاط والذي انتهى بمعركة المختارة عام ١٨٢٥ ومقتل بشير جنبلاط فيما بعد. ولا يفوت عن بالنا صراع الأهالي الذين شكلوا عاميات في انطلياس ولحفد ثارت في وجه الأمير بشير خلال الأعوام ١٨٢٠ و ١٨٢١ و ١٨٢٣ ثم السيطرة المصرية وعهد إبراهيم باشا مروراً بأحداث كثيرة طبعت تاريخ الإمارة الشهابية خلال مرحلة ١٨٤٠ والتي انتهت بالتدخل الإنكليزي والنمساوي والعثماني وإقصاء الأمير بشير إلى خارج البلاد، وتعيين بشير الثالث الذي لم يستطع مواجهة الظروف البالغة التعقيد التي نشأت عن تداخل المصالح الدولية في السلطنة العثمانية، وانتهت بقيام الحكم العثماني المباشر مع عمر باشا النمساوي ونهاية حكم السلالة الشهابية عن إمارة جبل لبنان.

وسنة ١٨٥٠م كانت وفاة الأمير بشير عمر الكبير في اسطنبول حيث دفن هناك في دير للأرمن الكاثوليك، قبل أن تستعيد الجمهورية اللبنانية رفاته خلال عهد الرئيس بشارة خليل الخوري إلى لبنان وتعيد دفنه في قصر بيت الدين الذي كان مقراً للإمارة الشهابية أثناء حكمها لجبل لبنان.

الأمراء المعنيون

سنة ١٥٤٤م توفي الأمير فخر الدين الأول وترك ابنه قرقماز.

وخلال السنة ١٥٨٤م حصلت الحادثة المعروفة بحادثة جون عكار والتي نهبت خلالها الأموال الأميرية المرسلة إلى خزانة الدولة العثمانية واتهم فيها الأمير قرقماز، الذي سوف يضطر إلى الهرب باتجاه قلعة تيرون حيث توفي تاركاً فخر الدين الثاني ويونس اللذين كانا صغيرين، فتولى الإمارة في غيابهما خالهما الأمير سيف الدين التنوخي.

ولما عاد فخر الدين نشبت بينه وبين ابن سيف معركة قرب مجرى نهر الكلب سنة ١٥٩٨م وانتصر الأمير وتولى بيروت وكسروان لسنة واحدة وعاد إلى الشوف.

وخلال عهد فخر الدين امتدت الإمارة اللبنانية واتسعت لتشمل مناطق من جبل عامل وفلسطين وبعض نواحي البقاع، ثم اضطر فخر الدين إلى التوجه ناحية أوروبا وتحديداً توسكانة حيث بقي لفترة طويلة بسبب عدائه مع ولاة الدولة العثمانية، ورجوعه إلى لبنان وصولاً إلى سنة ١٦٢٣م التي تعتبر مفصلاً بارزاً في حياة الإمارة المعنية زمن فخر الدين الثاني. وخلال هذه الفترة حدثت معركة عنجر الشهيرة التي انتصر فيها فخر الدين الثاني على مصطفى باشا وأسره، لكنه عاد فأطلق سراحه وأعاد إليه ما سلب منه. ورداً لهذا الجميل أنعم الوزير العثماني على الأمير فخر الدين بولاية مقاطعة غزة وسنجقية صفد. أما الأمير علي ففاز بولاية البقاع، والأمير حسين بسنجقية عجلون، ومدير الأمير تولى سنجقية نابلس.

في السنة ١٦٣٣م توفي الأمير علي ابن الأمير فخر الدين قرب حاصبيا في مواجهة عساكر الكجك، وكذلك قتل كل من يونس وقرقماز الذي ترك ولداً يسمى ملحم. وبعد عامين توفي الأمير فخر الدين الثاني وأولاده في اسطنبول دون عقب.

وبعد ذلك توفي الأمير ملحم صغيراً سنة ١٦٧٩م.

وفي سنة ١٦٩٧م توفي الأمير أحمد ملحم بلا عقب وبه انقطعت السلالة المعنية وانتهت إمارة المعنيين وانتقلت المقاليد إلى أيدي الشهابيين كما بيّنا مسبقاً.

الأرسلانيون

سنة ١٥٣٨م كان الأمير جمال الدين أرسلان قد توجه مع نخبة من رجاله بحراً إلى جزيرة قبرص حيث اشترك في الحملة العثمانية عليها. وبسبب خدماته، أقرّ على ولايته حين عودته إلى لبنان وتسلم بعده الأمير محمد ابنه الولاية.

وخلال سنة ١٥٥٧م تزوج هذا الأخير من إحدى النسوة التنوخيات، وعاد واشترك في حملة جديدة على قبرص جرت سنة ١٥٧٠م وأعطي من قبل والي دمشق أحمد باشا توصيات جديدة. وأنعمت عليه السلطنة العثمانية بولاية الغرب بعد تبرئته من حادثة جون عكار. وكانت وفاة محمد سنة ١٦٠٥م.

وخلال سنة ١٦١٥م حصلت معركة الناعمة بين الأميرين يونس وعلي المعنيين زعيمي القيسية وبين الشيخ مظفر علم الدين والأمير مذحج بن محمد زعيمي اليمنية، وكانت الغلبة للقيسيين الذين دخلوا إلى مناطق الغرب والجرد والمتن وأحرقوها وهدموا منازل الأمير محمد جمال الدين في الشويفات وعرمون.

وخلال معركة عين داره سنة ١٧١١م بين الأمير حيدر الشهابي زعيم القيسية ومحمود أبو هرموش وبني علم الدين، تم إلقاء القبض على زعماء اليمنية السبعة وقتلهم.

بعد ذلك سوف يتحول الصراع من قيسي - يمني إلى يزبكي - جنبلاطي.

الشيعة

يعتبر الشيخ أحمد رضا أن الشيعة في سوريا ما زالوا كسائر أبنائها ينالهم ما ينال البلاد من سراء وضراء، لا تمتاز حالهم العامة عن حالة مجاوريهم بشيء، حتى ألحقت بلاد جبل عامل بحكومة جبل لبنان في زمن الأمير فخر الدين المعني الثاني.

وكانت قبل ذلك منطقة مستقلة تابعة لإيالة صيدا، حيث أن الشيعة لم يستطيعوا التحرر من سلطة المعنيين إلا خلال عهد الأمير أحمد المعني بعد الوهن الذي أصاب الإمارة، فخرجوا عن إطاعة أمرائه وقام الأمير أحمد بغزوهم في النبطية لكنه اضطر للتراجع عنها مهزوماً.

ويقول المؤرخ المحقق جرجي يني في مجلة المقتطف عند كلامه عن

ظاهر العمر ما تفصيله. . . «بل أرى أن قوته تزداد كثيراً بانضمام المتاولة إليه وكانوا في سمت عزهم».

ويؤكد الشيخ الظاهر هذه الأمور ويعتبر أن ظاهر العمر كان متفقاً مع مشايخ المتاولة وعلى رأسهم الشيخ نصار في ١٧٨٠م وهو أعظمهم مالاً ورجالاً.

ويورد الشيخ رضا أنه بعد استقلال الجزار في حكم عكا بدأ بإخضاع المتاولة، فكانت بينهم مواقع متعددة آخرها موقعة يارون حيث انتصر الجزار على ناصيف نصار. ولما دخل نابليون إلى بلاد الشام، أعطاه المتاولة طاعتهم تخلصاً من نير الجزار.

لكن بعد رحيل الفرنسيين عاد الجزار إلى غيّه وظلمه إلى يوم وفاته سنة ١٨٠٤م حيث عرفت البلاد بعض الراحة. وأعاد إليهم عبدالله باشا الخزندار عزهم السابق، بعد خلافه مع والي دمشق درويش باشا. واستعان بهم ضده في موقعة حصلت عند جسر بنات يعقوب وكانت القيادة فيها للشيخ فارس الناصيف.

وعندما حلّ الجيش المصري في لبنان، أدخل بلاد بشارة في حكم الأمير بشير الشهابي الذي كثر الظلم في عهده على تلك البلاد العاملية.

وقد حارب الشيعة فلول الجيش المصري في وادي الجيش قرب عكا، وصفد وطبريا. وقدرت الحكومة العثمانية عملهم هذا وسلمت قائدهم حمد البيك إمارة بلاد الشيعة باسم شيخ مشايخ آل بشارة. وتولى بعده أخوه علي بك الأسعد الشهير بمواقفه في حوادث سنة ١٨٦٠م بين الدروز والنصارى.

ويتحدث الشيخ سليمان ظاهر عن تعاقب أمراء جبل عامل الذين يبتدئون ببني سودون حيث تنسب إليهم عين أبو سودون في وادي الحجير المعروف، ثم آل الصغير والسادة الشكرية وآل صعب ومنكر، ثم آل الزين. واقتسمت الأسر الثلاث الصغيرية والعصبية والمنكرية حكم البلاد، فكان القسم الجنوبي منها للأسرة الصغيرية، والقسم الشمالي مقسماً بين أسرتي صعب ومنكر، فكانت مقاطعة الشقيف للأولى وإقليما التفاح والشومر للثانية.

ويركز الشيخ ظاهر على أن جبل عامل تولاها أمراء منه، كانوا مستقلين في إدارته يتولونه التزاماً بطريقة الحكم الإقطاعي، ويرجعون في أموره السياسية وفي تأدية أموال الالتزام إلى نواب السلطنة العثمانية الموجودين في بلاد الشام.

وانتهى الأمر في جبل عامل من حيث وحدة الإدارة حتى آخر العهد العثماني بثلاث قائمقاميات هي على التوالي، صيدا وصور ومرجعيون، وقد ضمت إلى الأخيرة منطقة الحولة.

المشايخ الحمادية

تولى الشيخ أحمد قانصوه وأخوه علي بلاد جبيل والبترون من قبل الوالي مصطفى باشا كاتاجاج متسلم طرابلس سنة ١٦٣٦م.

وخلال سنة ١٦٤١م هرب المشايخ الحمادية إلى علمات خوفاً من اضطهاد والي طرابلس لهم وما لبثوا أن رحلوا إلى نواحي كسروان الداخلية بعد قدوم الوالي قبلان باشا الذي هدم منازلهم في علمات.

وبعد سنة ١٦٧٣م عادوا إلى مقاطعاتهم ورفعت عنهم بعض الأعباء المالية الأميرية ولكنهم راحوا يتصرفون بالأموال الأميرية على هواهم ونهبوا بعض النواحي في جبة بشري وبلاد إهدن ورشعين.

وسنة ١٧٦١م توجه الحماديون إلى جبة بشري لقتال أهلها الذين أنزلوا فيهم هزيمة نكراء.

وسنة ١٧٧٠م ألقى الأمير يوسف الشهابي القبض على بعض الحمادية ثم سار نحو بزيزا في بلاد الكورة، وهناك دارت معارك أدت إلى هزيمة الحمادية.

نسبة آل جنبلاط

ينتسب آل جنبلاط إلى جان بولاد الذي ولد أحمد وحسين، وكان لأحمد علي ولحسين مصطفى ومصطفى ولد له سعيد وسعيد ولد له جان بولاد أول سلالتهم في لبنان.

وجان بولاد ولد رباح ورباح ولد كلاً من علي وفارس وشرف الدين، وعلي ولد يونس وجان بولاد ونجم ومحمود قاسم وحسين.

يقول الشيخ طنوس الشدياق في كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» أنه سنة ١٦٣٠م حفر جانبولاد بن سعيد بولده رباح من بلاد حلب إلى بيروت لما بينهم وبين آل معن من الصداقة والوداد، ولما تم خبره قدم إليه أكابر جبل لبنان ودعوه إلى الإقامة في بلادهم فأجاب وأتى معهم وأقام في مزرعة الشوف فاعتبره الأمير فخر الدين حتى كان يعتمد عليه في مهمات أموره.

وخلال سنة ١٧١٢، عند وفاة الشيخ قبلان القاضي دون وريث، اتفق أكابر الشوف أن يكون صهره علي جنبلاط رأساً عليهم وطالبوا الأمير حيدر الشهابي توليته مكان الشيخ قبلان وكانوا قد ساعدوه خلال معركة عين داره فأجابهم إلى طلبهم. وسنة ١٧٧٠م جمع الشيخ علي جنبلاط وسار مع الأمير يوسف الشهابي إلى قتال الصغيرية والعصبية المتاولة في جبل عامل، كما مرّ معنا.

ومما لا شك فيه أن مقتل الشيخ بشير جنبلاط أثر على العلاقات الدرزية مع الأمير بشير الثاني وأثر كذلك على كافة الأوضاع داخل الإمارة الشهابية.

الفصل العاشر

قبائل الفرات
خلال العهد العثماني

إن القبائل التي سيرد ذكرها، تعتبر من قبائل الفرات وكانت تنتسب بأصولها إلى شمر، وقد بقيت خلال مرحلة الحكم العثماني تحتفظ بنوع من الاستقلالية عن السلطنة العثمانية لاعتبارات عديدة لا مجال لإبرازها، أما أهمها فهي على التوالي:

أ ـ الزوبع: سكنت عند ملتقى نهري الفرات ودجلة جنوب الجزيرة.

ب ـ الحديديون: مضاربها في أعالي الجزيرة وتلال سنجار الشمالية.

جـ ـ البوحميد: مجموعات صغيرة تنزل بالقرب من سنجار.

د ـ طيء: وهي فرع لطيء الكائنة في الجزيرة العربية.

هـ ـ جيس: يعتقد بأن أصولها كردية أو جركسية ومناطقها في الشمال الغربي من الجزيرة.

و ـ الجبور: تنزل في مناطق بالقرب من الخابور وتكريت حول مجرى دجلة.

ومن قبائل العنزة:

١ ـ الفدعان.

٢ ـ السبعة.

٣ ـ الحسنة.

٤ ـ ولد علي.

٥ ـ ابن هذال.

٦ ـ الجلاس.

٧ ـ الرفدي.

٨ ـ السرحان.

وتتحالف معها قبائل.

١ ـ البوخميس.

٢ ـ الولدة.

٣ ـ الموالي.

٤ ـ الدليم.

ولكن هذه القبائل التي تحالفت مع قبيلة عنزة بقيت تحت المظلة العثمانية، وحماية السلطات في اسطنبول وبغداد.

المصادر والمراجع

أولاً: المصـادر

١ ـ كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» ـ الشيخ طنوس الشدياق، نظر فيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور فؤاد أفرام البستاني، الجزء ١ و٢، منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٧٠ توزيع المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان.

٢ ـ «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين» وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان للأمير حيدر أحمد الشهابي، عني بضبطه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور فؤاد أفرام البستاني والدكتور أسد رستم. الأقسام: الأول، الثاني، الثالث. منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٦٩.

٣ ـ «لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني» وهو كتاب تاريخ الأمير فخر الدين المعني للشيخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩.

٤ ـ «تاريخ ابن الأثير».

٥ ـ «تاريخ أبي الفداء».

٦ ـ «كمال الدين ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب»، تحقيق الدكتور سامي الدهان، ثلاثة أجزاء منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية.

ثانياً: المراجع

١ ـ «العرب قبل الإسلام»، جرجي زيدان ـ المكتبة الأهلية ـ بيروت.

٢ ـ «فجر الإسلام»، أحمد أمين، القاهرة ١٩٢٩.

٣ ـ «تاريخ الأدب الجاهلي»، الدكتور علي الجندي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٦، منشورات الجامعة العربية بيروت.

٤ ـ «تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر»، الدكتور فيليب حتي، منشورات دار الثقافة بيروت ١٩٧٨.

٥ ـ «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»، الدكتور فيليب حتي الجزآن ١ و٢ منشورات دار الثقافة.

٦ ـ «الصراع على تاريخ لبنان، أو الهوية والزمن في أعمال مؤرخينا المعاصرين»، بقلم أحمد بيضون، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٨٩.

٧ ـ «لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»، الدكتور محمد علي مكي، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧.

٨ ـ «الموارنة من هم وماذا يريدون»، الأب ميشال عويط.

٩ ـ «المسألة الكردية، الوهم والحقيقة»، مازن بلال، منشورات دار بيسان.

١٠ ـ «للبحث عن تاريخنا في لبنان»، علي الزين، بيروت ١٩٧٣.

١١ ـ «مجلة عرفان»: مؤسسها أحمد عارف الزين ١٩٠٩، العدد ١ جزء ١ مجلد ١ حتى مجلد ٢٤.

١٢ ـ بحث الموارنة، المردة، الجراجمة، أصلهم من وجهة نظر المؤرخين اللبنانيين «مادة تاريخ لبنان الحديث»، السنة الأولى للدراسات العليا في التاريخ ـ إعداد عاطف عيد ١٩٩٧.

١٣ ـ بحث حدود جبل عامل ـ وجهة نظر المؤرخين الشيعة «مادة تاريخ العرب الحديث والمعاصر» السنة الأولى للدراسات العليا في التاريخ، إعداد عاطف عيد ١٩٩٧.

القسم الثاني

موريتانيا

جوزف صقر

لمحة جغرافية

تقع جمهوريّة موريتانيا الإسلامية في الجهة الغربية من القارة الإفريقية، على شواطىء المحيط الأطلسي.

يحدّها من الشرق مالي، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشمال الجزائر والمغرب، ومن الجنوب مالي والسنغال.

تبلغ مساحتها ١,٠٣٠,٧٠٠ كلم^{٢}. وعدد سكّانها ٢,٢ مليون نسمة. وهم متنوّعو الأصل، وأكثريّتهم من البيض، ونسبة ٧٥٪ من السكّان تتحدّر من امتزاج العرب والبربر والسود.

عاصمتها مدينة نواكشوط، وأبرز مدنها نواديبو، روسو، المهارة، وبوجيمه.

يتكلّم سكّانها، إلى جانب اللغة العربية، اللغة الفرنسية التي تُعتبر اللغة الرسمية الثانية في البلاد. ويدين معظم السكّان بالإسلام، ويتبعون المذهب المالكي.

تتبع البلاد النظام الجمهوري الرئاسي. فرئيس الجمهورية يجمع بين رئاسة الدولة والحكومة، ويمثّل الشعب الجمعية الوطنية. وبعد استقلالها سنة ١٩٦٠، انتمت موريتانيا إلى الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية. وهي تحتفل بعيدها الوطني في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر).

وموريتانيا بمساحتها الواسعة هي أرض شبه صحراوية، لا تعرف الأمطار إلاّ نادراً. أمّا مصدر المياه الوحيد فيها فهو نهر السنغال الذي يساعد على زراعة الأرز التي تنتشر بالقرب من مجراه. لكن الزراعة لا تشكّل مورداً

مهمّاً بسبب طبيعة البلاد الصحراوية ومناخها الحار، وسيطرة الحياة القبلية على هذا القطاع.

لذلك، يعتمد القطاع الزراعي على صيد الأسماك الذي يشهد تطوّراً مستمرّاً (أكثر من ٣٠٠ ألف طن سنويّاً). وتنشط في المناطق الصحراوية تربية الجمال (مليون رأس)، بالإضافة إلى الأغنام والماعز.

وفي المجال الصناعي، تعتمد موريتانيا على ثروتها المنجمية من الحديد (١٠ ملايين طن سنويّاً)، وهي تشكّل مورد الدخل الرئيسي للبلاد. وتنتج صناعات أخرى، أبرزها الإسمنت وآلات التبريد.

التاريخ القديم

لم تكن البلاد صحراوية جافة منذ القدم؛ فالآثار المنقوشة على صخورها، والتي تبدو فيها أشكال مختلفة من الأدوات التي استعملها الإنسان القديم هناك، تؤكّد أنّ البلاد كانت غنية بالمياه وتتساقط فيها الأمطار. وكان فيها العديد من الأنهار التي جفّت مع الزمن بسبب التغيّرات المناخية التي حدثت على سطح الكرة الأرضية. فهجر الإنسان المنطقة، إمّا نحو مصر وإما نحو المناطق الجنوبية.

كان الإنسان في العصر الحجري الحديث يعيش في تلك المنطقة معتمداً على الزراعة، ومستقرّاً في أرضه ضمن مجموعات بشريّة تعيش بالتعاون في ما بينها.

ومع مرور الزمن، بدأت تتوافد إلى المنطقة المعروفة اليوم بموريتانيا جماعات من القبائل أخذت تستوطن بعض المناطق الصحراوية فيها، أبرزها من الطوارق.

وعند انتشار المسيحية في غرب أفريقيا، كانت هذه القبائل قد اختلطت بالسكان الأصليّين. وكانت تعتمد في عيشها على التجارة مع الشعوب المجاورة في الشمال والجنوب، وعلى ما تنتجه الأرض من حبوب في الواحات الصحراويّة.

ومع بداية الفتح الإسلامي، كانت القبائل في موريتانيا، ولا سيّما قبيلة صنهاجة، قد بدأت تعتمد على الجمل كوسيلة في التنقّل وفي الإستفادة من حليبه ولحمه. ولعب الجمل دوراً بارزاً في انتقال سكّان البلاد إلى ممارسة مهنة التجارة والتخلّص إلى حدّ كبير من سيطرة الشماليّين الذين سبقوهم إلى استخدام هذا الحيوان. وراحوا يتوسّعون باتجاه الجنوب ويفرضون سيطرتهم على المناطق المجاورة.

وبعدما ترسّخ الإسلام في غرب افريقيا، نشأت في المغرب دولة «المرابطين» التي كان لها تأثير كبير على سكّان موريتانيا الذين أخذوا عن جيرانهم في الشمال الدين. فانتشر الإسلام في معظم أنحاء البلاد، وبدأت مواكب الحجّاج تعبر نحو الشرق لأداء فريضة الحجّ، وخصوصاً من منطقة تدعى شنقيط. وهذا الأسم أصبح مع الوقت يطلق في الشرق على البلاد المعروفة بموريتانيا.

إبتداءً من القرن الحادي عشر، وعلى مدى أكثر من قرنين من الزمن، أمّت البلاد قبائل عربية عديدة، وراحت تستقرّ فيها وفي المغرب. وأبرزها بنو هلال وبنو سليم. ثم جاء بنو معقل بعد طردهم من المغرب على يد السطان المريني.

وامتزجت هذه القبائل في ما بينها عن طريق التزاوج، وتكاثرت أعداد أفرادها وتنوّعت فروعها وتوزّعت جماعات وعشائر. وفي فترة لاحقة، برزت في البلاد جماعة بني حسّان التي راحت مع الوقت تسيطر على البلاد وتفرض لغتها العربية التي انتشرت انتشاراً واسعاً، وباتت لغة ٨٠٪ من السكّان، علماً أنّ بني حسّان ليسوا عرباً صرفاً، بل هم مزيج من العرب القادمين إلى البلاد وسكّانها القدماء من البربر.

وخلال القرن الخامس عشر، تمكّن بنو حسّان من فرض نفوذهم على معظم أرجاء البلاد، وأصبحوا أمراءها وبات الحكم بيدهم. وأقاموا علاقات تجاريّة مع الشمال، ووصلوا في ذلك إلى أوروبا، وخصوصاً البرتغال التي راح تجّارها ينشئون الأسواق والمراكز التجاريّة على الساحل الغربي للقارة الأفريقية، ويبيعون إلى السكّان ما يحملونه من مصنوعات، في مقابل الحصول على الصمغ العربي.

مرحلة الاحتلالات

إذا كان البرتغاليّون السبّاقين إلى غزو موريتانيا والغرب الافريقي تجاريّاً، فإنّ دولاً أخرى راحت تتطلّع إلى تحقيق نفوذ لها في تلك المنطقة، وخصوصاً فرنسا وبريطانيا وهولندا. ومن الطبيعي أن يتسبّب هذا التطلّع المشترك في حروب بين الدول التي كانت تتقاسمه. وكانت النتيجة تناوباً في السيطرة على أجزاء من ساحل موريتانيا، كان أحياناً يتمّ بموجب معاهدات بين الأطراف المعنيّة.

وبين أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، عقدت معاهدة بين فرنسا وبريطانيا، اعترفت فيها الثانية بحقّ الأوّلى في السيطرة على منطقة الصحراء الموريتانيّة وفي إخضاعها لنفوذ فرنسي مطلق. ولم تكتفِ فرنسا بالهيمنة على المنطقة التي تمّ الاتفاق عليها مع بريطانيا، فأخذت في التوسّع نحو الداخل، باتجاه الجزائر التي كانت خاضعة آنذاك للنفوذ الفرنسي أيضاً. وأعربت كذلك عن نيّتها في التوسّع جنوباً وضمّ مناطق من السنغال، وإطلاق تسمية «موريتانيا الغربية» على المناطق الخاضعة لسيطرتها.

ومع بداية القرن العشرين، واصلت فرنسا سياسة التوسّع والضمّ فاتفقت مع إسبانيا على أن تسيطر الثانية على مناطق الصحراء الأفريقية الكبرى الممتدّة غرباً شمال الرأس الأبيض، في حين تبسط فرنسا نفوذها على المناطق الواقعة جنوب هذا الرأس. وبين العامين ١٩٠٢ و١٩٠٣، فرض الفرنسيّون الحماية على منطقتي طرارزه وبيراكني، ثمّ ضمّتهما بعد سنة إلى ما يُسمّى «المنطقة المدنية» في موريتانيا.

وقام الفرنسيّون بعد ذلك برسم الحدود بين موريتانيا والجزائر سنة ١٩٠٥، بالاستناد إلى الرأس الأبيض، ثمّ بين موريتانيا والصحراء الغربية

الخاضعة للنفوذ الإسباني بين العامين ١٩٠٤ و١٩١٢. وتمّ الأمر بناء على اتفاقيّتين بين فرنسا وإسبانيا.

إزاء تنوّع الاحتلالات وتوسّعها، انقسم سكّان المنطقة إلى فئتين: الأولى، وعمادها «المرابطون»، رضخت للغزو الأوروبي، وارتبطت مع الأوروبيّين بالتجارة. وعمد «المرابطون»، مستفيدين من حماية الأوروبيّين، إلى تكوين قاعدة قوية لهم في المناطق الجنوبية، وسعوا إلى مدّ نفوذهم باتجاه المناطق الشمالية، حيث معقل المعارضين للاحتلال الأجنبي.

وهؤلاء يشكّلون الفئة الثانية التي ناوأت الفرنسيّين، واتّخذت مراكز لها في الساقية الحمراء وأدرار وزمور. وهي تضمّ عدداً من القبائل الرحّل وغيرها. وقد جعلت قيادتها تحت إمرة أمير أدرار وشخص يُدعى «ما العينين» الذي كان حليفاً للأمير ويتّخذ من زاوية سمارا مقرّاً له.

هذا التناقض في المواقف من الاحتلال أحدث شرخاً في العلاقات بين المناطق الخاضعة للفرنسيّين، والغنية بالمراعي، وبين المناطق الحرّة التي كانت تعتمد في معيشة سكّانها على تربية المواشي. فبسبب انغلاق الأراضي المحتلّة بمراعيها عن مواشيها، لم يعد السكّان قادرين على تأمين العلف لماشيتهم. وهذا الأمر كان يعني الوقوع تحت سيف الجوع، وهو سلاح قاطع قاتل أدرك الفرنسيّون قوّته فاستخدموه في التفاوض مع القبائل في أدرار والساقية الحمراء وزمور. وكانت شروط التفاوض الفرنسيّة تختصر باثنين: الاستسلام وإلقاء السلاح، ودفع الجزية. وأحياناً، كانت الضغوط الفرنسيّة تثمر، بحيث يلقي البعض سلاحه ويتجه نحو المناطق المحتلّة، فنير الاحتلال قد يكون أخفّ وطأة من نير الجوع!

على رغم ذلك، لم تتوقّف المعارك بين الجانبين والتي كانت تتجدّد في كلّ مرّة تتوقّف فيها القبائل عن دفع الجزية. أمّا السلاح فكان يمدّها به في شكل مستمرّ الإسبان والمغاربة. وسيفقد الثوّار مصدراً للسلاح بعد الانزال الفرنسي في المغرب. فكان لا بدّ لهم من طلب المزيد من الأسلحة من التجّار الإسبان للتعويض عن النقص الذي حصل بعد احتلال المغرب.

وقد استغلّ التجّار الوضع فرفعوا أسعار الأسلحة مستغلّين حاجة الثوّار إلى السلاح بأيّ ثمن.

وشهدت الصحراء أكثر المعارك ضراوة بين العامين ١٩٠٨ و١٩١٢. وكانت نتائجها سيّئة على الثوّار الذين فقدوا جزءاً مهمّاً من قواهم. ومرّت المنطقة بمرحلة هدنة أثناء الحرب العالمية الأولى.

مستعمرة فرنسيّة

في الرابع من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٢٠، صدر مرسوم جمهوري فرنسي تحوّلت بموجبه موريتانيا من «منطقة مدنيّة» إلى مستعمرة يدير شؤونها حاكم عسكري فرنسي. لكن المستعمرة لم تفصل عن منطقة افريقيا الغربية الفرنسيّة وبقيت خاضعة لها في مختلف النواحي الإدارية والعسكرية. وجعلت مدينة سان لويس (السنغال) عاصمة للمستعمرة الجديدة. وفي السنة نفسها، تمّ تحديد الخطوط الإدارية للبلاد، والتي غدت في مرحلة لاحقة خطوطاً سياسيّة.

أمّا حدود افريقيا الغربية الفرنسيّة فكانت تمتدّ من بحيرة تشاد في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن الجزائر والمغرب في الشمال إلى المحيط الأطلسي في الجنوب. وتستثنى من هذه المنطقة الواسعة المناطق الخاضعة للسيطرة البريطانية أو الإسبانية.

الثورة من جديد

لم تكد الحرب العالمية الأولى تصل إلى نهايتها حتى استأنف الثوّار في موريتانيا العمليّات العسكريّة ضدّ الفرنسيّين، سعياً إلى استعادة المراعي منهم. وتقدّمت التحرّك العسكري قبائل عديدة، أبرزها كونتا ورجيبات وبرابيش. وقد جعلت من الصحراء الغربية الإسبانية نقطة تجمّع وانطلاق لها.

إستطاع الثوّار إلحاق خسائر بارزة بالفرنسيّين، كان أهمها القضاء على مجموعة عسكريّة فرنسيّة في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣، وعلى مجموعة أخرى في منطقة أدرار في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها. وقد ردّ

الفرنسيّون بقوّة على هاتين العمليّتين واستطاعوا إبعاد الثوّار عن مناطق نفوذهم في العام ١٩٢٥ إلى المناطق الشمالية في المغرب وتلك الخاضعة للنفوذ الإسباني، فتوقفت العمليّات العسكرية لفترة من الزمن دامت نحو ستّة أعوام.

ففي العام ١٩٣١، تجدّد القتال بعدما تمكّن الثوّار من شراء كميّات من البنادق. ولم تتوقّف المعارك إلاّ في العام ١٩٣٤، فألقى الثوّار سلاحهم بعدما أصيبوا بخسائر فادحة نتيجة المعارك والجفاف الذي ضرب مناطقهم، وفرض الفرنسيّون عليهم شروطاً قاسية حدّت من نشاطهم الثوري لسنوات.

وفي تلك الفترة، أنشأ الفرنسيّون مركزين عسكريّين لهم في صحراء الشمال، أحدهما «فورت غورد» والثاني «فورت ترانكه». وكان الهدف من إنشائهما إقامة الاتصال المباشر بين فصائل الهجانة الموالية لفرنسا، والموجودة في كلّ من موريتانيا والمغرب والجزائر.

في الحرب العالمية الثانية

عند اندلاع الحرب في أوروبا سنة ١٩٣٩، أقدمت فرنسا على تجنيد آلاف الأشخاص من مستعمراتها الافريقية، بما فيها موريتانيا التي قاتل جزء من رجالها إلى جانب الفرنسيّين.

وأثناء الحرب، عقد مؤتمر في مدينة برازافيل سنة ١٩٤٤، ضمّ ممثلين عن الإدارة في المستعمرات الفرنسية في افريقيا كافة. ونتج عن المؤتمر إعلان فرنسي بنشر الديموقراطية في الحياة السياسية في مختلف مستعمراتها، وبتأسيس دوائر حكومية فيها تستند إلى حق الانتخاب العام، ولكن بصلاحيّات محدودة. وكان من مصلحة فرنسا أن تضمّ في الإدارة زعماء القبائل المتحالفة معها في موريتانيا.

الانتخابات الأولى

في العام ١٩٤٦، تمّ فصل موريتانيا عن السنغال، رغم أنّ العاصمة بقيت سان لويس، وهي مدينة سنغالية. وجرت أوّل انتخابات تشريعيّة في البلاد. وكان يحقّ للموريتانيّين أن ينتخبوا نائباً واحداً يمثلهم في الجمعية

الوطنية الفرنسيّة، وذلك بموجب دستور الجمهورية الفرنسيّة الرابعة الذي صدر في العام نفسه. وكان من مصلحة الفرنسيِّين أن يفوز في الانتخابات أحد حلفائهم المحلّيين.

وكان بين المرشّحين الزعيم القومي حرمة ولد بابانا الذي كان يؤيّد حصول تغييرات في بنية المجتمع، أبرزها إلغاء النزعة القبلية؛ بالإضافة إلى تغييرات في المجال الاقتصادي.

وتمخّضت الانتخابات عن فوز حرمة ولد بابانا الذي حظي بتأييد البدو الرحّل والزعماء في السنغال المنضوين في الحزب الاشتراكي الفرنسي.

ومن النتائج غير المباشرة للانتخابات ظهور الأحزاب في الحياة السياسيّة في موريتانيا. وقد برز حزبان هما: الاتحاد التقدّمي الموريتاني الذي أسّسه الزعماء التقليديّون، وحزب الوفاق الموريتاني الذي أسّسه حرمة ولد بابانا والذي حظي بتأييد البدو في المناطق الشمالية. وسيطر على البلاد منحيان: الأول وجهته الانضمام إلى الاتحاد الفرنسي، والثاني هدفه الاستقلال.

وقد أدّى النهج السياسي غير الثابت الذي اعتمده حرمة ولد بابانا والذي انتهى في العام ١٩٥١ إلى تأييد الحكومة الفرنسيّة في خلافها مع السلطان المغربي محمد الخامس، إلى بروز حزب الاتحاد التقدمي الموريتاني الذي فرض نفوذاً قوياً على الحياة السياسية في البلاد من خلال نهجه في تحقيق التعاون بين عرب الشمال وزنوج الجنوب. وانتهى الأمر إلى فشل حرمة ولد بابانا في انتخابات الجمعية الوطنية التي جرت في السنة نفسها، فيما فاز الاتحاد التقدّمي باثنين وعشرين مقعداً من أصل ٢٤ مقعداً في الجمعية الإقليميّة، وهي مؤسسة تمثيليّة تمّ استحداثها بموجب مقتضيات الدستور الفرنسي الذي أقرّ في العام ١٩٤٦.

الإستقلال

على الطريق

ساهم عدد من الأحداث التي عرفها العالم وشمال وغرب أفريقيا خلال تلك الفترة من الزمن، في تبلور أكثر للحياة السياسيّة في موريتانيا، وفي تصاعد حركة التحرّر الوطني التي كانت تدعو إلى الاستقلال التام للبلاد ورفع الاستعمار والاحتلال الفرنسيّين عنها.

فمن الثورة الجزائرية التي اندلعت ضدّ الفرنسيّين في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤؛ إلى ثورة المغاربة وحصول المغرب على استقلاله سنة ١٩٥٦ بعد إقصاء السلطان محمد الخامس وتنصيب محمد بن عرفة مكانه؛ وصولاً إلى موجة تحرّر المستعمرات في مختلف أنحاء العالم على أثر نهاية الحرب العالمية الثانية وشيوع مبدأ حرية الشعوب في تقرير مصيرها.

كلّ هذه الأمور مجتمعة شكّلت حافزاً مهمّاً دفع بالموريتانيّين إلى السير على طريق الاستقلال، على رغم صعوبتها ووعورتها والأشواك المزروعة فيها. وقد أجبر التصميم الشعبي على تحقيق الاستقلال السلطات الفرنسيّة على تقديم بعض التنازلات للتخفيف من حدّة النزعة الاستقلالية في البلاد. ففي حزيران (يونيو) ١٩٥٦، صدر في فرنسا قانون يسمح للحكومة باتخاذ مراسيم لتوسيع صلاحيّات الجمعيّات الإقليميّة في مستعمراتها في افريقيا الاستوائية. وبموجب القانون، منحت الجمعيّات الإقليميّة حق انتخاب المجالس الحكوميّة التي تمثّل السلطة التنفيذية، وإقرار الموازنات المحلّية. وقد تولّى منصب نائب الرئيس في هذه المجالس مواطن افريقي ينتخبه السكّان المحليّون، فيما بقي منصب الرئيس مخصصاً للفرنسيّين.

وفي موريتانيا، انتخب السكّان زعيم حزب الاتحاد التقدمي الموريتاني مختار ولد داده، وكان المحامي الوحيد في البلاد آنذاك، نائباً لرئيس المجلس الحكومي.

وكان حرمة ولد بابانا قد ترك موريتانيا وانتقل إلى المغرب، مع بعض القادة الآخرين، بعد هزيمته في الانتخابات، لا سيّما أنّه كان من مؤيّدي المطالب المغربية بضمّ موريتانيا إلى المملكة. واعتباراً من أيار (مايو) ١٩٥٨، توحّد الحزبان في البلاد، الاتحاد التقدّمي الموريتاني وحزب الوفاق الموريتاني، في حزب واحد حمل اسم «التجمّع الموريتاني»، وكان يناضل في سبيل الاستقلال والوحدة. وأخذ هذا الحزب على نفسه تحقيق الاستقلال من خلال التفاوض، مع القبول بالانضمام إلى الاتحاد الفرنسي. وتشكّلت أوّل حكومة موريتانية في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٨.

غير أنّ فئة من الشعب الموريتاني رفضت الإستمرار ضمن الاتحاد الفرنسي، وتكتّلت في «حزب النهضة الوطنية» للمطالبة باستقلال كامل عن فرنسا.

تحقيق الاستقلال

بعد إعلان أوّل دستور لموريتانيا في آذار (مارس) ١٩٥٩ وانتخاب أوّل مجلس للبلاد بعد ذلك بشهرين، كانت أفراح الاستقلال قد عمّت عدداً من الدول الافريقيّة. فارتفعت المطالبة في موريتانيا بتحقيق الاستقلال، أسوة بغيرها من الدول المجاورة.

وبناء على ذلك، صادق المجلس الوطني الموريتاني على قانون يقضي بتعديل زمن تحقيق الاستقلال بحيث يتمّ قبل العام ١٩٦١. ولهذه الغاية، توجّه مختار ولد داده إلى باريس للتفاوض مع المسؤولين هناك في هذا الشأن. وبعد مفاوضات دامت من تموز (يوليو) حتى تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٠، تمّ التوقيع في ١٩ تشرين الأوّل (أكتوبر) على اتفاق موريتاني - فرنسي يقضي بنقل السلطات في موريتانيا إلى مسؤولين وطنيّين وإعلان الاستقلال الكامل للبلاد في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠. وتمّت الأمور

بحسب الاتفاق، وأعلن الاستقلال في التاريخ المحدّد، وأصبحت البلاد تعرف تحت اسم «جمهورية موريتانيا الإسلاميّة». وانتقلت العاصمة من سان لويس في السنغال إلى مدينة نواكشوط التي بناها مختار ولد داده في فترة سابقة لكي تصبح عاصمة البلاد بعد الاستقلال، وأصبح هو أوّل رئيس للبلاد في فترة لاحقة.

النظام والسياسة الداخلية

إنّ استقلال موريتانيا لم يكن يعني سوى نهاية مشكلة واحدة، هي الاحتلال العسكري والسياسي من قبل الفرنسيّين للبلاد. أمّا المشاكل الأخرى، من سياسيّة داخلية واقتصاديّة، فقد كانت في قمّة تأزّمها، ممّا سيجعل من سنين الاستقلال الأولى سنين صعبة على البلاد.

فعلى الصعيد السياسي، تعدّدت الأحزاب التي كانت تمثّل قبائل مختلفة وتيّارات سياسيّة متنوّعة، ممّا جعل قيام «الأمة» في البلاد أمراً صعباً مع استمرار الروح القبلية. وهذا الواقع سيدفع بالنظام السياسي نحو نظام رئاسي يعتمد على الحزب الواحد. فبعيد الاستقلال، قامت الحكومة الموريتانية بتعديل دستور ١٩٦١، فانتقلت موريتانيا من النظام البرلماني الذي نصّ عليه دستورا ١٩٥٩ و١٩٦١ إلى النظام الرئاسي، وصار رئيس الجمهورية ينتخب عبر التصويت العام. وهكذا، أصبح مختار ولد داده أوّل رئيس للبلاد، وبقي في الحكم طيلة ستة عشر عاماً إلى أن أطاحه انقلاب سلمي في العام ١٩٧٨، وهو أوّل انقلاب تشهده البلاد.

توحيد الأحزاب

في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦١، دعا الحزب الحاكم إلى عقد مؤتمر تحت شعار «الوحدة الموريتانية». شارك فيه، إلى جانب صاحب الدعوة، الاتحاد الوطني الموريتاني، والاتحاد الاشتراكي لمسلمي موريتانيا، وحزب النهضة الذي كان محظراً.

وانتهى المؤتمر إلى اتخاذ قرار بتوحيد أحزاب البلاد وضمّها في حزب واحد، هو «حزب الشعب الموريتاني».

هذه الأحادية في الأحزاب الموريتانية كرّسها الدستور الجديد للبلاد في العام ١٩٦٥، ممّا أعطى الحزب قوّة قياديّة مكّنته من التأثير على مختلف القرارات السياسيّة والاقتصادية، الداخلية والخارجية، التي كانت تتخذها الحكومة. فألغى الحزب نظام الزعامة التقليدية في البلاد، وشدّد على تعزيز نظام الرئاسة والحزب الواحد لكي تتمكّن موريتانيا بوحدتها الداخلية من مواجهة التحدّيات الخارجية المتعدّدة والتي كان أكثرها يستهدف وحدة أراضيها وشعبها.

وفي العام ١٩٦٤، جرت محاولات لتأسيس حزب معارض في البلاد تحت تسمية «الجبهة الوطنية الديموقراطية». إلاّ أنّ الحكومة سارعت إلى حلّ هذا الحزب، مشدّدة في دستور العام ١٩٦٠ على نظام الحزب الواحد.

وفي المؤتمرين اللذين عقدهما الحزب الحاكم في العامين ١٩٦٦ و١٩٦٨، تمّ تحديد الاتجاهات الرئيسة في سياساتها التي تشمل دعم دور الدولة والحزب في حياة البلاد وتعزيز الاقتصاد الوطني واللغة العربية. وجرى تقسيم البلاد إلى ثماني مناطق إدارية واقتصادية، تضاف إليها العاصمة نواكشوط و٣٨ مديرية و٣٥ دائرة.

وقسّم الحزب الحاكم إلى هيئات وطنية مختلفة: المؤتمر الوطني (وهو أعلى هيئة حزبية)، المجلس الوطني المكتب السياسي الوطني واللجنة الدائمة. ويشترك في أعمال المؤتمر الوطني أعضاء المكاتب الاتحادية والمكتب السياسي الوطني والجمعية الوطنية ومندوبو الفروع والمجلس الوطني وسفراء الدولة. وينعقد المؤتمر مرّة كلّ أربع سنوات لانتخاب أعضاء المكتب السياسي الوطني.

أمّا المجلس الوطني فينعقد مرّة في السنة ليحدّد الأطر والاتجاهات العامة لسياسة الدولة في مختلف المجالات السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية.

ويتألّف المكتب السياسي من ١٦ عضواً، من ضمنهم رئيس البلاد ورئيس الجمعية الوطنية ورئيس الكتلة البرلمانية. ويتولّى المكتب السياسي

تشكيل اللجنة الدائمة عبر الانتخاب. أمّا اللجنة الدائمة فتجتمع أسبوعياً لحلّ المسائل المختلفة.

أمّا الاتحادات فهي عبارة عن تنظيمات حزبيّة موزّعة في مختلف أنحاء البلاد. وعلى رأس كلّ اتحاد مكتب سياسي يتألّف من أحد عشر عضواً. ويتألّف كلّ اتحاد من فروع ولجان عدّة يختلف عدد أعضاء كلّ منها بين منطقة وأخرى.

مواد أساسيّة في الدستور الجديد

المادة الأولى: إنّ موريتانيا دولة جمهورية ديموقراطية.

المادة الثانية: إنّ الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للشعب الموريتاني (مع ضمان حرية المعتقد).

المادة الثالثة: إنّ اللغة القومية هي اللغة العربية، وإنّ اللغة الفرنسية هي اللغة الرسميّة.

وأشارت مواد الدستور أيضاً إلى أنّ رئيس الجمهورية ينتخب لمدّة خمس سنوات، ويحقّ له أن يعيد ترشيح نفسه، وهو يجب أن يكون مسلماً، ويُمنح صلاحيّات واسعة جداً.

والرئيس يحدّد السياسة العامة للدولة ويسهر على تطبيقها، ويصادق على القوانين ويمثّل البلاد في العلاقات الدولية. ويتولّى الرئيس تعيين الوزراء المسؤولين أمامه وحده، والقادة العسكريّين ويكون القائد العام للقوّات المسلّحة.

ونصّ الدستور على أن يكون عدد أعضاء الجمعية الوطنية التي تشكّل السلطة التشريعية في البلاد أربعين نائباً ينتخبون لمدّة خمس سنوات.

ويحقّ لجميع المواطنين، ومن الجنسين، الانتخاب بعد بلوغهم السن القانونيّة. وهم يتمتّعون بكامل حقوقهم المدنية والسياسيّة.

ولا يزال هذا الدستور ساري المفعول حتى اليوم، ولكن بعد تعديلات بسيطة، منها ما ينصّ على أن تكون اللغة العربية لغة رسميّة إلى جانب الفرنسيّة.

الاقتصاد

على الصعيد الاقتصادي، ورثت الحكومة عن الاستعمار الفرنسي بنية اقتصادية هشّة، تتّسم فيها القوى المنتجة بضعف بالغ، فيما الموارد الطبيعية لم تكن مستثمرة كما ينبغي. وقد أرغم هذا الوضع السلطات المحلّية على الخضوع لتبعيّة اقتصادية، خاصة على الصعيد المالي، لفرنسا التي استفادت من «معاهدة التعاون» لتبقي لها سيطرة ما على موريتانيا من خلال مرابطة بعض قوّاتها في عدد من النقاط المهمّة في الدولة الافريقية.

إنّ معظم سكّان البلاد هم من الرعاة الرحّل (٨٠٪ من السكّان) الذين يعتمدون في معيشتهم على تربية المواشي والبحث الدائم عن المراعي التي لا تتوفّر إلاّ في مواسم معيّنة من السنة، خصوصاً أنّ نسبة ٧٥٪ من الأراضي الموريتانية هي صحراويّة جافة، لا تعرف المطر إلاّ نادراً جدّاً. وتشمل تربية المواشي الماعز والأغنام والجمال، وما قد يتوفّر من أبقار، وهي نادرة الوجود في هذا البلد. ويستفيد السكّان أيضاً من جمع الصمغ العربي وبيعه.

أمّا البقيّة من سكّان البلاد، وخصوصاً تلك التي تقطن الجنوب، فهي تعتمد على زراعة الدخن الأفريقي، إلى جانب تربية الأبقار والأغنام.

وممّا يزيد الوضع الاقتصادي سوءاً استمرار انتشار الاقطاعية والأنظمة القبلية في النظام الاجتماعي للمواطنين الرحّل. ويمتلك زعماء القبائل القطعان الكبيرة من المواشي ويوكلون رعايتها لأبناء قبائلهم، فيما يتولّى الأتباع، وهم خدم قريبون من درجة العبيد، فلاحة الأراضي وزراعتها ويقدّمون القسم الأكبر من الغلال إلى أصحاب الأرض.

هذا الوضع جعل من موريتانيا بلداً يعتمد الاقتصاد الاستهلاكي المقتصر على الماشية وبعض الزراعات. واستمرّ ذلك حتى بعيد الاستقلال، حيث بدأ

الاهتمام بتطوير صيد الأسماك على شواطىء المحيط الأطلسي. وبدأت الحكومة، من ناحية أخرى، تستثمر الثروات المعدنية المهمة من الحديد والنحاس، والمدفونة في أراضيها. وكان هذا الأمر بمثابة تهيئة لمرحلة التصنيع التي ستعبر البلاد إليها في فترة لاحقة.

وفي هذا الإطار، بدأ تطوّر استثمار منجم الحديد المهمّ في منطقة فورت غورد (إيجيل فديريك حالياً) والذي كان العمل قد بدىء به في العام ١٩٣٥. وهو ينتج فلز الحديد من النوعيّة الممتازة. وقامت الحكومة بإنشاء بلدات لصناعة التعدين، وإنشاء سكة حديد بطول ٦٧٥ كلم لنقل الحديد الخام إلى مراكز التصنيع، ومن ثمّ ميناء للتصدير إلى كلّ من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا واليابان.

وفي تموز (يوليو) ١٩٦٣، أقرّت الجمعية الوطنية الخطّة الرباعية الأولى للتنمية الاقتصادية والتطوّر الاقتصادي، بغية تحقيق هدفين: زيادة الموارد المالية الداخلية تمهيداً لتحقيق التمويل الذاتي والتخلّص من التبعيّة الاقتصادية الخارجية، وإعداد قاعدة للمرحلة التالية من التطوّر في المجالين الاقتصادي والاجتماعي. وحقّقت هذه الخطّة معدّل نمو سنويّاً بلغ ٧٪ من أصل ٩,٢٪ بحسب الخطّة المرسومة.

المشاكل الخارجية

إنّ الوضع الذي وجدت فيه موريتانيا نفسها بعد الاستقلال جعل بعض الدول يعتبر أنّ هذا البلد هو «كيان لدولة غير قادرة على الحياة». واعتبرت دول أخرى أنّ موريتانيا تدور في فلك الغرب، وخصوصاً فرنسا. وشجّعت هذه الصورة التي رسمت للدولة الجديدة دولاً أخرى مجاورة لها على المطالبة بأجزاء من أراضيها، كالمغرب ومالي والمنظمة العامة للصحراء الكبرى. ولاقت هذه المطالبة تأييداً من بعض دول العالم. لكن الحكومة الموريتانية صمدت في وجه هذه الضغوط، مؤكّدة على حقّها في الاستقلال ومتمسّكة به. وقد أعلن الرئيس ولد داده في كلمة ألقاها في العام ١٩٧٠، يوم عيد الاستقلال، أنّ السنوات العشر الأولى من العهد ركّزت على بناء الدولة واختيار الاتجاهات السياسيّة المناسبة وخطوط التطوّر الأساسية للبلاد.

إنّ التقسيم الذي وضعته فرنسا لغرب أفريقيا وأجزاء من الصحراء الكبرى أدّى إلى وقوع خلافات بين الدول المعنية به. فاعتبر بعضها أنّ ما تمّ كان مجحفاً بحقّه.

وانطلاقاً من هذا الإعتبار، جاءت مطالبة المغرب ببعض المناطق في موريتانيا ومالي والسنغال والجزائر، والتي رأت أنّ لها الحقّ في ضمّها إلى سلطتها بسبب اعتبارات تاريخيّة. وفي العام ١٩٦١، نشرت في المغرب وثيقة تحت عنوان «الحقيقة عن الحدود المغربيّة»، وجاء فيها أنّ مالي هي الدولة الوحيدة التي تجاور المغرب على حدود الصحراء، ممّا يعني إلغاء وجود موريتانيا.

وردّت موريتانيا على المطالب المغربيّة باعتبارها ادعاءات خاطئة ولا أساس لها، وهي ترتكز على أطماع في ثروات موريتانيا المعدنية، كالحديد

والنحاس. وصدرت في نواكشوط أحكام بالإعدام في حق أشخاص ينتمون إلى حزب الاستقلال الذي كان يسلّم بالمطالب المغربيّة.

ولم تكن المغرب وحدها في المواجهة، إذ انضمّت إليها دول أفريقيّة أخرى اجتمع مندوبون عنها في الدار البيضاء، وأكّدوا على تأييد مطالب المغرب في موريتانيا.

وكان المغرب قد أصدر في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠ كتاباً أكّد فيه حقوقه التاريخيّة في بلاد شنقيط. وأشار إلى أنّ المناطق الصحراوية كانت دائماً جزءاً لا يتجزّأ من أراضيه طوال فترة الاستعمار الفرنسي وحتى إعلان الحماية الفرنسية على تلك المناطق: (العملة المغربية، الضرائب، تعيين القادة والباشوات، دعاء المصلين للسلطان المغربي). كلّها أمور تؤكّد الحقوق المغربية.

ولم تتأخّر موريتانيا عن الردّ على المغرب، مشيرة إلى أنّ هذه الدولة كانت تُعرف باسم مراكش، فيما كان يُطلق على موريتانيا اسم شنقيط. كذلك، أكدت أنّ الفاصل بين البلدين هي منطقة صحراوية شاسعة المساحة.

وكان لا بُدّ، بنتيجة هذا السجال بين الطرفين، من عرض الموضوع على الأمم المتحدة. فانقسمت الدول العربية بين مؤيّد لطرف ومؤيّد للطرف الآخر. ودعا بعض الدول الأفريقية الرباط إلى إنهاء الموضوع والاعتراف باستقلال موريتانيا، التي ربحت جولة بانضمامها كعضو كامل إلى الأمم المتحدة في نيسان (أبريل) ١٩٦١.

ثمّ رفضت نواكشوط مشروعاً مغربياً لتحقيق اتحاد بين البلدين على أساس الاعتراف بموريتانيا. لكن المغرب اعترف في النهاية باستقلال موريتانيا بعدما سوّى خلافه مع الجزائر في شأن الصحراء.

مشكلة الصحراء

تفصل الصحراء الغربية بين المغرب وموريتانيا، بحيث تقع إلى جنوب الأولى وإلى غرب الثانية. وهي تتألف من سهول ساحلية تتدرّج في الارتفاع

نحو الداخل لتصل إلى ارتفاع ثلاثمئة متر، ثمّ إلى سلاسل جبليّة يبلغ ارتفاعها أكثر من ٦٠٠ متر عند الحدود الموريتانية.

أهاليها قبائل تعيش على تربية المواشي، وهم من العرب والبربر الرحّل، بالإضافة إلى أعداد من الزنوج التي جاءت من حوض السنغال. ويتكلّم سكّانها اللغة العربية باللهجة الحسانية السائدة في المنطقة.

وكانت هذه القبائل تختلف في ولائها بين مؤيّدة للمغرب ومؤيّدة لموريتانيا وللانضمام إليها. إلاّ أنّ ظهور معدن الفوسفات فيها سيحوّل اهتمامات الدول المحيطة بها نحوها، وهي المغرب والجزائر وموريتانيا.

فالأولى تعتبر الصحراء امتداداً لأراضيها، وكذلك الأخيرة. أمّا الجزائر فكانت ترى فيها متنفّساً لها يصلها بالمحيط الإطلسي.

عرف البرتغاليّون الصحراء قبل غيرهم من الأوروبيّين وأطلقوا عليها اسم «وادي الذهب»، وأنشأوا فيها عدداً من المراكز التجارية على طول الساحل. وحلّ محلّهم الإسبان في فترة لاحقة، فأنشأوا مراكز جديدة لهم. وراحوا يتوغّلون في الداخل حتى تمكّنوا في العام ١٩٠٢ من ضمّ الصحراء الممتدّة من رأس بوجادور إلى رأس جوير إلى السيطرة الإسبانية.

وفي المؤتمر الذي عقد في برلين بين تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤ وشباط (فبراير) ١٨٨٥، طالبت إسبانيا ببسط سيطرتها على كامل الساحل الافريقي المطلّ على المحيط الأطلسي. فعارضتها فرنسا. واستمرّ الخلاف بينهما إلى أن توصّلتا إلى اتفاقين، الأول في العام ١٩٠٠ والثاني في العام ١٩٠٢، على تحديد مناطق نفوذ كلّ منهما في المنطقة المذكورة. وبموجب الاتفاقين يصبح الحدّ الجنوبي لمنطقة النفوذ الإسبانية محاذياً للرأس البيضاء حتى خط طول ١٢° غرباً، وتضمّ الأراضي الواقعة بين رأسي بوجادور وجوير إلى السيطرة الإسبانية أيضاً.

وفي العام ١٩١٢، تحدّدت بشكل نهائي حدود الصحراء التي تسيطر عليها إسبانيا، بموجب اتفاق جديد عقدته مع فرنسا، فامتدّ النفوذ الإسباني ليشمل وادي الذهب والساقية الحمراء ووادي درعا وطرفايه.

وبعد وصول الفاشيّين إلى السلطة فيها، سيطرت إسبانيا في العام ١٩٣٤ على منطقة سماره. ثم نظّمت الحكم في مناطق سيطرتها تحت قيادة حاكم عسكري إسباني.

وفي العام ١٩٦٠، تمّ اكتشاف الفوسفات في الصحراء الغربيّة، الأمر الذي جعل أنظار العديد من الشركات العالمية، من إسبانية وأميركية وغيرها، تتّجه نحو هذه المنطقة، وراحت تتسابق على استغلال هذا المعدن. واستغلّت إسبانيا نفوذها في المنطقة، فوزّعت امتيازات استغلال الفوسفات على الشركات العالمية على النحو التالي: ٢٥٪ للشركات الأميركية، ٢٠٪ للشركات الفرنسيّة والألمانية، و٥٥٪ للشركات الاسبانية. غير أنّ هذا التوزيع لم يدم طويلاً، فراحت إسبانيا تنفرد شيئاً فشيئاً في استغلال الفوسفات بمساعدة بعض الشركات الأوروبية.

وبعد استقلال المغرب، راحت الرباط تنادي بإنشاء المغرب بحدوده التاريخيّة التي رأى حزب الاستقلال أنها تمتدّ إلى السنغال وتشمل الصحراء. وحاول المغرب التمدّد في المناطق الصحراوية عبر غارات مسلّحة شملت مناطق إيفني وطرفايه والساقية الحمراء ووادي الذهب وشمال موريتانيا. فاتّحد الفرنسيّون والإسبان في صدّ عمليات المغاربة. ولكي يتجنّب الإسبان مزيداً من التدخّل الفرنسي في هذه المشكلة، عمدوا إلى مفاوضة الرباط والتنازل لها عن إقليم طرفاية في نيسان (أبريل) ١٩٥٨، فيما احتفظت إسبانيا بمنطقة إيفني وبالصحراء، مع استمرار المطالبة المغربية بهما.

وفي العام ١٩٦٢، استقلّت الجزائر ونشأ صراع على الصحراء بينها وبين المغرب. وتطوّر الصراع إلى حرب عسكريّة بين الدولتين انتهت إلى تسوية يستمرّ بموجبها الوضع على الحدود كما كان في عهد الاستعمار الفرنسي، بحيث يستمرّ اتصال الحدود الجزائرية بالصحراء.

وفي العام ١٩٦٦، صدر قرار عن الأمم المتحدة يدعو إسبانيا إلى اتخاذ التدابير اللازمة لرفع السيطرة عن إقليمي إيفني والصحراء، بالتعاون مع حكومتي موريتانيا والمغرب وأيّ طرف آخر معني بالأمر، ومن ثمّ إجراء استفتاء تشرف عليه الأمم المتحدة، ويقرّر بموجبه سكّان الصحراء مصيرهم.

لكن إسبانيا أخذت تماطل، فعاودت الأمم المتحدة إقرار الطلب نفسه في العامين التاليين. فاتفقت إسبانيا مع المغرب على تسليمها منطقة إيفني بموجب معاهدة فاس في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩، وتمّ ذلك في ٣٠ حزيران (يونيو) من السنة نفسها.

وكان العاهل المغربي الحسن الثاني قد استقبل الرئيس الموريتاني مختار ولد داده في الدار البيضاء في ٨ حزيران (يونيو) ١٩٦٩، وعقدا معاهدة أخوّة وصداقة وحسن جوار، واتفقا على التنسيق من أجل تحرير الصحراء من النفوذ الإسباني. ونصّت المعاهدة على تخلّي المغرب عن المطالبة بمدّ حدوده حتى نهر السنغال.

وفي العام التالي، عقد لقاء ثلاثي مغربي - موريتاني - جزائري في ١٤ أيلول (سبتمبر) انتهى إلى بيان يشدّد على ضرورة التعاون في ما بين الدول الثلاث بهدف الإسراع في إنهاء الاستعمار الإسباني للصحراء. وتضمّن البيان اعترافاً مغربيّاً باستقلال موريتانيا وإعادة الوضع الطبيعي للعلاقات بين البلدين، وتمّ تبادل السفراء بينهما في العام نفسه.

وبعيد هذا الاتفاق الثلاثي، نشأت في الصحراء الغربية حركة استقلاليّة برئاسة احد زعماء قبائل الرقيبات، راحت تدعو إلى إقامة دولة مستقلّة في الصحراء، رافضة التعاون مع إسبانيا والتقارب مع أيّ من المغرب وموريتانيا.

وتواصلت اللقاءات الثلاثية، وكلّها كان يؤكّد على ضرورة تصفية الاستعمار الاسباني في الصحراء. ولم يدم الوفاق الكلامي طويلاً، إذ عاد التنافر والهجمات الإعلامية المتبادلة بين المغرب والجزائر في شأن الصحراء، في حين سلّمت موريتانيا مذكرة إلى الأمم المتحدة تؤكّد فيها أنّ الصحراء الغربية هي جزء من أراضيها، وهي ترفض أن يتولّى أيّ كان التفاوض باسمها في موضوع مستقبل الصحراء. ودعت المذكرة إلى إضافة سؤال على الاستفتاء المزمع إجراؤه، يتعلّق برغبة الأهالي في الانضمام إلى موريتانيا.

واعتبر الملك المغربي في المقابل أنّه يمكن لمحكمة العدل الدوليّة أن

تحدّد حقّ موريتانيا في الصحراء أو عدمه. أمّا الجزائر فهي غير معنيّة بالأمر، بحسب العاهل المغربي.

وأمام محكمة العدل الدولية، اعترف كلّ من المغرب وموريتانيا بحق الآخر في الصحراء، وانتهى الأمر إلى مجرّد استشارة في مسألة قانونية وتاريخيّة. ووضع البلدان الخطوط العريضة للتقسيم أثناء زيارة للرئيس الموريتاني إلى فاس في المغرب في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٤. وتمّ الاتفاق على أساس التعاون الاقتصادي بين البلدين في المنطقة.

وبعد أخذ وردّ، أبرم اتفاق ثلاثي مغربي - موريتاني - إسباني في مدريد في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥، تعهّدت إسبانيا بموجبه برفع يدها عن الصحراء الغربية وإقامة إدارة مشتركة في الإقليم بمشاركة كلّ من المغرب وموريتانيا، وبالتعاون مع القبائل الصحراويّة، على أن تنهي إسبانيا وجودها في الصحراء قبل نهاية شباط (فبراير) ١٩٧٦.

بعد ذلك، دخلت قوّات مغربية إلى الصحراء واحتلّت مدينتي سماره والعيون. واحتلّت موريتانيا مدينة داخلة، ثمّ مدينة لاجويرا بعد صدامات عنيفة مع عناصر من جبهة البوليساريو.

وكانت الجزائر قد أرسلت بعضاً من قوّاتها إلى الصحراء لتقف في وجه تنفيذ اتفاق مدريد. فارتفعت حدّة التوتّر بين الدول المعنيّة، وانقسمت الدول العربية بين مؤيّد لهذا الفريق ومؤيّد لآخر، فيما التزمت تونس جانب الحياد.

وفي ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٧٦، أكملت إسبانيا انسحابها من الصحراء الغربية، فأعلنت جبهة البوليساريو في اليوم التالي قيام «جمهورية الصحراء العربية الديموقراطية» على الأراضي الواقعة تحت سيطرتها. ثمّ أعلنت تشكيل حكومة برئاسة محمد الأمين أحمد، فاعترفت بها الجزائر فوراً، ممّا حدا بالمغرب وموريتانيا إلى قطع علاقاتهما الديبلوماسيّة معها.

في المقابل، اتفق المغرب وموريتانيا على تقسيم الصحراء في ما بينهما، فتكون حصّة موريتانيا الثلث الجنوبي من الصحراء، أو منطقة وادي الذهب، بينما يحصل المغرب على منطقة بوكرات الغنية بالفوسفات.

في تلك المرحلة، بدأت جبهة البوليساريو بشنّ حرب عصابات في المغرب وموريتانيا، مدعومة من الجزائر وليبيا اللتين أمدّتاها بالسلاح والمال. واعتبرت الجزائر أنّ أيّة مفاوضات يجب أن تتمّ بين المغرب وموريتانيا من جهّة، وبين جبهة البوليساريو التي اعتبرتها ممثلة للشعب الصحراوي. وأكّدت أنّ أيّ وساطة يجب أن ترتكز على مبدأ أساسي، هو صيانة كيان الشعب الصحراوي ووجوده وحقّه في تقرير مصيره.

أدّى الصراع المسلّح بين أطراف النزاع إلى إرهاق الاقتصاد الموريتاني الذي تكبّد خسائر كبيرة نتيجة الأعباء العسكريّة التي فرضتها المواجهة مع البوليساريو. أمّا المغرب، فقد غيّر استراتيجيّته في المواجهة عندما شعر بالأعباء نفسها، فانتقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم بهدف مباغتة البوليساريو وضربها.

ولم يطل الصراع طويلاً. ففي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩، أعلنت لجنة الحكماء الافريقيّين، التي كلّفتها منظمة الوحدة الافريقيّة النظر في المسألة، إعترافها بحق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره، ودعت المغرب إلى سحب قوّاته من الصحراء، مطالبة بتشكيل قوّة افريقية لحفظ الأمن والنظام فيها، لحين التوصّل إلى حلّ.

وكانت الأمور قد وجدت طريقها إلى التفاهم بين موريتانيا وسكّان الصحراء؛ إذ وقّع الطرفان في آب (أغسطس) ١٩٧٩ اتفاقية سلام نهائية، اعترفت فيها موريتانيا بالحقوق الوطنية لشعب الصحراء، وتعهّدت بالتخلّي عن منطقة تبريز التي كانت تحتلّها منذ العام ١٩٧٥.

وانقلب التحالف بين المغرب وموريتانيا إلى عداوة جعلت الأخيرة تنضمّ إلى جانب الجزائر وليبيا في معارضة المطالب المغربية في الصحراء. وأخذت نواكشوط إلغاء الاتفاقية مع المغرب في شأن الصحراء، مؤكدة تخلّيها عن أي مطلب لها في هذه المنطقة.

المراجع

١ ـ «تاريخ الأقطار العربية المعاصر»، دار التقدّم، موسكو.

٢ ـ «المغرب العربي الحديث والمعاصر»، دكتور جلال يحيي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢.

٣ ـ «المعجم التاريخي للبلدان والدول»، مسعود خوند.

٤ ـ «مسألة الصحراء»، الدكتور جمال زكريا قاسم، والدكتور صلاح العقاد، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٦.

٥ ـ «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»، علال الفاسي، القاهرة، ١٩٤٨

القسم الثالث

الصومال

جوزف صقر

لمحة جغرافية

تقع جمهورية الصومال الديموقراطية في منطقة القرن الأفريقي. يحدّها من الشرق والجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب أثيوبيا وكينيا، ومن الشمال خليج عدن وجيبوتي.

عرفت الصومال في عهد المصريِّين القدامى باسم «أرض بونيت»، وسمّاها الرومان «أرض الطيوب»، والعرب «برّ الأغراب» أو الصومال.

تبلغ مساحتها ٦٣٧,٦٥٧ كلم٢.

عدد سكّانها نحو تسعة ملايين ونصف المليون نسمة.

عاصمتها مدينة مقديشو، وأهم مدنها حارجيسا، كيسيمايو وبِربِره.

تفتقر البلاد إلى المياه، باستثناء قسمها الجنوبي حيث يؤمن المياه نهرا جوبا وويبي شيبيلي.

تقع معظم أراضيها بين مدار السرطان وخط الاستواء، مما يجعل مناخها حاراً وجافاً، فترتفع الحرارة في الصيف إلى أكثر من ٤٠ درجة مئوية في بعض المناطق. أمّا الأمطار فلا تتعدّى كميّتها ٥٠ ملم في الشمال و٤١٠ ملم في الجنوب خلال السنة.

يعتمد الاقتصاد الصومالي في شكل رئيسي على الزراعة وتربية الماشية وصيد الأسماك والثروة المنجمية. وهي تعتبر من البلدان الأكثر فقراً في العالم.

تسهم الزراعة بحوالي ٦٠٪ من الدخل الوطني العام، وهي تعتمد على مواسم الموز والذرة البيضاء والذرة وقصب السكر والسمسم. وتصدّر البلاد قسماً من إنتاج الموز والسمسم فقط، وما تبقّى يُستهلك محلياً.

أمّا تربية الماشية فتشمل الأبقار والخراف والماعز، وهي تصدّر قسماً منها إلى الدول المجاورة، وخصوصاً اليمن والسعودية ومصر.

وفي مجال صيد الأسماك، لا يزال النشاط محدوداً، حيث أنّ استثمار هذه الثروة لم يتوسّع بالحجم اللازم حتى الآن، فالإنتاج لا يتعدّى عشر الكمية التي يمكن استثمارها سنوياً (٢٠ ألف طن).

وأمّا الثروة المنجمية فهي غير مستغّلة كما يجب، وتشمل الملح والحديد والرصاص والقصدير والأورانيوم.

وتبقى الصناعة التي هي بدائية جداً أو شبه معدومة.

إنّ هذا الوضع الاقتصادي يجعل من الصومال بلداً يعتمد على المساعدات الخارجية التي تخفّف من وطأة البؤس على الناس، إلاّ أنّها لا تبعد عنهم أبداً الجوع والفقر.

عبر التاريخ

يعتبر سكّان الصومال مزيجاً من أهل البلاد الأصليّين ومن أبناء القبائل العربية التي جاءت المنطقة مع الفتح الإسلامي وبعده، في الفترة الممتدّة بين القرنين السابع والتاسع للميلاد. وقبيلة قريش هي الأبرز بين القبائل التي استوطنت الصومال خلال تلك المرحلة.

وعلى رغم اللهجات المحلية التي ينطق بها السكّان، فإنّ هذا المزيج السكّاني ينخرط في مجتمع توحّده اللغة والدين ووسائل العيش والتقاليد.

حتى ما قبل القرن التاسع عشر، كان سكّان الصومال يعيشون في المناطق الساحلية، باستثناء فئة قليلة كانت تستوطن الداخل. وكان جيرانهم يطلقون على تلك المنطقة تسمية بلاد البنط. ولغناها بالمسك والعنبر، كان سكّان الحبشة يأتون إليها للحصول على هاتين المادتين.

جعل منها البطالسة مركزاً تجاريّاً وأنشأوا فيها مكاتب عدّة لهذه الغاية. وعندما جاءها عرب اليمن، أقاموا فيها عدداً من المرافىء التجارية، أبرزها مقديشو، زرلا، بِربِره وبرافامركا. ومع بدء الاكتشافات الجغرافية في أوروبا، وصل البرتغاليون إلى الصومال، وأبدوا اهتماماً شديداً بموقعها ومرافئها، ودخلوا في صراع مع السلطنة العثمانية بغية السيطرة عليها. وفي إحدى أسفاره، مرّ الرحّالة البرتغالي فاسكو دي غاما بالمنطقة، حيث اطّلع على حركة مرافئها والتجارة فيها، وترك وصفاً مطوّلاً لمدينة مقديشو ومرفئها الذي برز في تلك المرحلة، إذ كان يستقبل السفن الآتية من الهند والصين وغيرها. وكان يشرف عليه أشراف من آل مظفر.

ومع الوقت، أصبحت مرافىء الصومال صلة وصل بين العالم الإسلامي ومملكة الحبشة التي كان سكّانها يعتنقون المسيحية.

مرحلة الاستعمار

خضع الصومال، كغيره من معظم مناطق وشعوب أفريقيا، لاستعمار أوروبي دام سنوات طويلة، عاش خلالها شعبه حقبات صعبة وقاسية عرف فيها الفقر والجوع والذلّ والموت.

أوّل المستعمرين كانوا الإنكليز الذين سيطروا على الساحل الصومالي طوال الفترة الممتدّة بين العامين ١٨٢٧ و١٨٨٤. وساعدهم في ذلك اتفاقهم مع خديوي مصر إسماعيل واعترافهم بولايته، ممّا أفسح في المجال أمامهم للحلول مكان العثمانيّين. وعندما بدأت انتفاضة المهدي في السودان ضد المصريّين الذين أجبروا على الجلاء عن المنطقة، وجد الإنكليز الفرصة مناسبة ليضعوا يدهم على مناطق جديدة من الصومال. لكنهم كانوا مرغمين على تقاسم المنطقة مع الفرنسيّين والطليان الذين كان لهم موطىء قدم فيها. فأبرموا ثلاث معاهدات، الأولى مع فرنسا التي كانت تحتل جيبوتي في العام ١٨٨٨، والثانية مع مملكة الحبشة في العام ١٨٩٧، والثالثة مع إيطاليا في العام ١٨٩٤. وأنشأوا منذ العام ١٨٨٧ محميّة بريطانية دعوها «صوماليلاند». أمّا إيطاليا فحصلت على قسم من الأراضي الصومالية التي باتت مقسّمة بين الاستعمارين البريطاني والإيطالي.

وما كادت تمضي سنوات على توطيد أركان الاستعمار المزدوج، حتى بدأت سنة ١٨٩٩ ثورة الزعيم الديني، أو الشاعر المحارب، محمد عبد الله حسن ضدّ المستعمرين من إنكليز وطليان وأحباش، واستمرّ نضاله حتى العام ١٩٢٠، حين قتل على أيدي البريطانيّين خلال إحدى المعارك غير المتكافئة من حيث الأسلحة وأساليب القتال بين الطرفين. فقد أصدر الزعيم البريطاني ونستون تشرشل الأوامر باستخدام الطيران الحربي في العمليّات العسكرية لقصف تجمّعات الثوّار الصوماليّين. وتسبّب ذلك في مقتل أعداد كبيرة من الثوّار، بينهم الزعيم حسن، إلى جانب الدمار الذي تعرّضت له المنطقة المستهدفة والذي حوّلها إلى ركام.

واستمرّ الوضع على هذه الحال من التوتّر حتى العام ١٩٢٧، فمرّت البلاد في مرحلة من الهدوء النسبي لم تدم سوى سنوات قليلة.

وفي العام ١٩٣٦، قرّر الزعيم الفاشي في إيطاليا بنيتو موسوليني اجتياح الحبشة انطلاقاً من الصومال الإيطالي. وكان ذلك بمثابة خطوة على طريق تحقيق حلمه التوسّعي واستعادة أمجاد الأمبراطورية الرومانية. وبعد سقوط الحبشة نتيجة معركة غير متكافئة إطلاقاً، أعلن موسوليني قيام «أفريقيا الشرقية الإيطالية» التي ضمّت أريتريا والحبشة والصومال. وكلّ واحدة منها كانت بمثابة ولاية. وتوسّعت الأراضي الصومالية بعدما ضمّت إليها مناطق أوغادين والهود.

في ظلّ الفاشيّة التي لم تدم طويلاً، عرفت الصومال تقدّماً لا بأس به في المجال الزراعي، وخصوصاً الموز وقصب السكر والقطن. إلاّ أنّ نشوب الحرب العالمية الثانية وهزيمة الطليان أمام الإنكليز في أفريقيا في العام ١٩٤١، سيدخلان الصومال الإيطالي تحت النفوذ البريطاني ليصبح الصومال بأكمله تحت إدارة وسلطة موحّدتين. وأثناء السيطرة البريطانيّة، تمّ ضمّ مناطق أوغادين والهود إلى الحبشة (١٩٨٤).

بقي البريطانيّون في الصومال حتى العام ١٩٥٠، حين وضع الصومال الإيطالي مرّة جديدة تحت الوصاية الإيطالية لفترة عشر سنوات. وتمّ ذلك بناءً على قرار صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام ١٩٤٩، على أن تمنح البلاد استقلالها التّام بعد نهاية السنوات العشر.

مرحلة الاستقلال

سعى الإيطاليّون خلال تلك المرحلة القصيرة إلى إعداد القوى والأحزاب المحلية للمرحلة التالية عبر إقامة المؤسّسات وتدريبها لتصبح قادرة على إدارة الدولة بعد تحقيق الإستقلال. وعلى هذا الأساس، جرت في العام ١٩٥٦ أوّل انتخابات عامة في البلاد، شملت المجالس التشريعية والبلدية. وأسفرت الانتخابات عن فوز «رابطة الشبيبة الصومالية»، فشكّل هذا الحزب أول حكومة وطنية، وكانت برئاسة عبدالله عيسى. وقد سيطر هذا الحزب على الحياة السياسية في البلاد طوال فترة من الزمن، على الرغم من المعارضة التي وقفت في وجه الحكومة.

شجّع استقلال الصومال الإيطالي في العام ١٩٥٦ الصومال الخاضع للسيطرة البريطانية على الجهر بالمطالب الوطنية الاستقلالية وبالوحدة مع الصومال المستقلّ حديثاً. وخضعت بريطانيا لهذه الرغبة، وأعلنت استقلال الصومال البريطاني في العام ١٩٥٧. وعلى الفور، توحّد شطرا الصومال في دولة واحدة، وجرت انتخابات أوصلت عبدالله عثمان إلى رئاسة الجمهورية، وعبد الرشيد علي شرمايكه إلى رئاسة الحكومة. وهما أيضاً من حزب «رابطة الشبيبة الصومالية». أمّا الرئيس السابق للصومال الإيطالي، عبدالله عيسى، فقد عُيّن وزيراً للخارجية.

لم يعن حصول الصومال على استقلاله ووحدته انتهاء المراحل الصعبة في تاريخه، فالسنوات الأولى من الإستقلال ستشهد مشاكل مع بعض الدول وفي الداخل بين القيادات والتيّارات السياسيّة والعشائرية.

على الصعيد الخارجي، لم يقنع الصوماليّون بالحدود الجغرافية التي رسمها الاستعمار، إذ جمعهم حلم واحد هو تحقيق «الصومال الأكبر». وعبّر

المسؤولون عن رغبتهم هذه خلال المؤتمر التأسيسي لمنظمة الوحدة الإفريقية الذي انعقد في أديس أبابا (الحبشة) في العام ١٩٦٣. وركّزت المطالب الصومالية على استعادة منطقة أوغادين من الحبشة والتي كانت ضمّت إليها في العام ١٩٤٨. وقد أسفر ذلك عن توتّر العلاقات بين الصومال من جهّة، والحبشة وبريطانيا من جهّة ثانية. وانعكس التوتّر مع الخارج خلافات سياسيّة عميقة في الداخل نتيجة السياسات التي درجت عليها الحكومات المتعاقبة التي انتهجت خط المساومات راضخة لضغوط أجنبية من هنا ومن هناك.

وعلى الصعيد الداخلي، تفاقمت الخلافات السياسيّة في بلد كثرت فيها العشائر واللغات، وانقسم الشعب بين مؤيّد للنمط السياسي البريطاني ومؤيّد للنمط السياسي الإيطالي. وفقد حزب «رابطة الشبيبة الصومالية» بريقه الشعبي يوماً بعد يوم، ونمت في البلاد بذور نهج سياسي مؤيّد للاتحاد السوفياتي.

هذه العوامل مجتمعة كان لها الكلمة الفصل في تحويل البلاد من النظام الديموقراطي إلى النظام العسكري الذي سيطر على الحكم طوال أكثر من عشرين عاماً.

فبعد أشهر على إجراء الانتخابات التشريعية في العام ١٩٦٩، إغتال أحد أفراد الشرطة الرئيس الجديد للبلاد عبد الرشيد علي شرمايكه بعد عامين على انتخابه رئيساً. وسيطر الجيش على الحكم بتاريخ ٢١ تشرين الأول (اكتوبر) من السنة نفسها. وأصبح قائد الجيش آنذاك، الجنرال محمد سياد بري، رئيساً لمجلس قيادة الثورة.

حدّدت السلطة الجديدة برنامجها السياسي في ثلاث نقاط أساسيّة: الاشتراكية، الوحدة، والعروبة. وباشرت على الفور بانتهاج سياسة اشتراكية في الداخل ومع الخارج، كتأميم المصانع والشركات المحلية والأجنبية، وتوطيد العلاقات مع الدول الاشتراكية. وأبرز الشركات المؤممة كانت شركة الطيران، والمصارف، وشركات توزيع المنتوجات النفطية وشركات التأمين.

ونتيجة للسياسة الحكومية المتبعة، أوقفت الولايات المتحدة مساعداتها الاقتصادية للصومال. لكن الحكومة مضت في تطبيق سياسة إنمائية اقتصادية

ذات أسس اشتراكية، فأنشأت عدداً كبيراً من التعاونيّات الزراعية لتحسين أوضاع الزراعة. ونفّذت عدداً من الخطط الإنمائية التي استدعى بعضها تمويلاً خارجياً. إلاّ أنّ ذلك لم يمنع الدولة من أن تتطلّع إلى التخفيف قدر المُستطاع من الاعتماد على المساعدات الخارجية، من خلال الاتكال على مشاريع بتمويل ذاتي، كشقّ الطرقات وتوسيعها، وإنشاء المدارس والمستوصفات وغيرها من المؤسّسات التي لا غنى للدولة عنها.

أمّا وحدة البلاد فقد سعى الحكم إلى توطيدها عبر توحيد اللغة المتداولة والرسمية، فاستبدلت الإنكليزية والإيطالية بالصومالية ابتداءً من أوائل العام ١٩٧٣. وشجّعت الدولة على نشر الكتب الأدبية والمدرسيّة والمجلات المختلفة لخلق أداة فاعلة بين أيدي الشعب تدفعه إلى تعلّم القراءة والمطالعة فالتثقّف. ومن أبرز الذين عملوا في المجال الأدبي خلال تلك المرحلة الكاتب محمد عبدالله حسن الذي خصّص قسماً مهمّاً من أدبه لمحاربة الاستعمار.

ولتحقيق النقطة الثالثة من البرنامج السياسي للحكم، أعلن الرئيس الصومالي سياد بري في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٧٤ انضمام بلاده إلى جامعة الدول العربية. وقد جاء هذا الإعلان على رغم انكباب الدولة على «صوملة» البلاد، وعلى رغم أنّ العرب الصوماليّين يشكّلون أقلّية. إلاّ أنّ سياد بري أوضح الدوافع التي كانت وراء القرار، ولخّصها بقوله إنّ الانضمام إلى الجامعة العربية هدفه «تقديم علامة ودّية للعلاقات الأفرو - عربية». وبموجب هذا القرار، أصبحت العربية لغة الدولة الرسمية. لكنّ الصومالية ظلّت لغة أساسيّة في البلاد.

من جهّة ثانية، استفاد الصومال بانضمامه إلى الجامعة العربية من تعاطف الدول العربية معه ومساعدتها له في نزاعه مع أثيوبيا (الحبشة) على منطقة أوغادين، ومن الدول التي قدّمت له مساعدات مختلفة سوريا والعربية السعودية وليبيا ومصر والسودان.

واستفاد الصومال باعتماده الاشتراكية من مساعدات الاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية وكوبا والصين في نزاعه مع أثيوبيا على منطقة أوغادين الذي

تجدّد في العام ١٩٧٣. لكن السوفيات لم يلبثوا أن انحازوا إلى جانب أثيوبيا ابتداءً من العام ١٩٧٧، وتبعهم في ذلك الكوبيون واليمن الجنوبي. وعوض الصومال عن هذه الخسارة بتوثيق التعاون مع الصين وفتح خط الاتصال مع بعض الدول الغربية، وخصوصاً الولايات المتحدة، وحسّن علاقاته مع كلّ من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

النزاع مع أثيوبيا: ذكرنا سابقاً أنّ الصوماليّين لم يرضوا بالحدود التي رسمها الاستعمار لبلادهم، وخصوصاً بضمّ بعض المناطق منها إلى بلاد أخرى، مثل منطقة أوغادين التي ضمّها البريطانيّون إلى أثيوبيا. وبعد نزاع مسلّح على هذه المنطقة بين البلدين خلال العامين ١٩٦٣ و١٩٦٤، تجدّد الصراع مرّة أخرى في العام ١٩٧٣، وراحت مقديشو تقدّم الدعم لثوّار أريتريا.

وازداد التوتّر في العام ١٩٧٤، بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح الأمبراطور الأثيوبي هيلاسيلاسي، وأوصل الجيش إلى الحكم. وأمل الصوماليّون في أن تعمّ الفوضى أثيوبيا فتتفكّك ويستعيدون المنطقة التي يطالبون بها.

ولدعم الموقف الصومالي في النزاع، عقد الرئيس سياد بري معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٧٤، استفادت منها البحرية السوفياتية بقاعدة لها في مدينة بِربِره. وانضمّ الصومال في السنة نفسها إلى الجامعة العربية. وفي العام ١٩٧٦، تحوّل نظام الحكم في الصومال إلى نظام الحزب الواحد الحاكم وهو «الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي»، فاستلم الحكم محلّ «المجلس الأعلى لقيادة الثورة».

إستفاد الصومال عسكرياً من الانقلاب في أثيوبيا والفوضى التي أعقبته ومن الثورة الأريترية، فقدم المساعدات للثوّار في أوغادين الذين سيطروا على هذه المنطقة بشكل شبه كامل.

على خط آخر، سعت الدول الصديقة للطرفين إلى تحقيق تسوية سلميّة للنزاع ووقف العمليّات العسكرية الجارية. وفي هذا الإطار، دعا الرئيس

الكوبي فيدل كاسترو في آذار (مارس) ١٩٧٧ إلى عقد مؤتمر يجمعه بالرئيس الصومالي سياد بري والرئيس الأثيوبي منغيستو هيلا مريام. وانعقد المؤتمر في عدن (اليمن الجنوبي) في الشهر نفسه. واقترح الرئيس الكوبي على الرئيسين الصومالي والأثيوبي إقامة اتحاد بين بلديهما، ربّما انضمّ إليه اليمن الجنوبي في مرحلة لاحقة. لكن هذا الاقتراح اصطدم برفض كلّ من الرئيسين.

بعد شهرين، زار الرئيس الأثيوبي موسكو وأجرى محادثات مع زعماء الكرملن. ويبدو أنّ حججه قد أقنعتهم، فأخذت موسكو تبدّل استراتيجيّتها في منطقة القرن الأفريقي، وراحت تميل شيئاً فشيئاً إلى جانب الأثيوبيّين وضدّ مصلحة الصومال، بتعاون مع الكوبيّين. وكانت نتيجة ذلك على الأرض اضطرار القوّات الصومالية إلى الانسحاب بشكل تدريجي من الأراضي الأثيوبية إلى داخل حدودها في آذار (مارس) ١٩٧٨. وأصبح الصومال عرضة لاجتياح قد تقوم به القوّات الأثيوبية لأراضيه، لولا الإنذار الأميركي إلى موسكو من مغبّة القيام بعملية اجتياح.

ردّ الصومال على الانحياز السوفياتي والكوبي إلى جانب أثيوبيا، فطرد الخبراء السوفيات العاملين على أرضه، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع كوبا، وراح يتقرّب أكثر فأكثر من الغرب، وبشكل خاص من واشنطن، لإيجاد حليف يسانده في نزاعه الذي رجحت كفّته إلى جانب الطرف الآخر، إذ كان على الصومال أن يزيد عدد قوّاته العسكرية ويؤمّن السلاح ليستمرّ في المعركة، وهذا الأمر يحتاج إلى دعم مادّي لا يمكن تأمينه من الداخل.

ويبدو أنّ الوضع الذي آلت إليه البلاد دفع ببعض الجهّات المعارضة فيها إلى القيام بمحاولة انقلابية عام ١٩٧٩ كان مصيرها الفشل. وكان الوضع في الداخل قد بدأ بالتفسّخ منذ البدء بتطبيق نظام الحزب الواحد في البلاد، فحاول الرئيس سياد بري تدارك الأمر والاتجاه نحو نظام رئاسي. وعلى هذا الأساس، تمّ تبنّي دستور جديد في أواخر العام ١٩٧٩، وانتخب مجلس تشريعي جديد في السنة نفسها باشر أعماله بالتجديد لرئيس البلاد فترة رئاسيّة أخرى مدّتها ست سنوات.

وعاد النزاع مع أثيوبيا إلى الواجهة في أواسط العام ١٩٨٠، مترافقاً مع تصاعد المعارضة الصومالية في الخارج، وخصوصاً في أديس أبابا. أضف إلى ذلك تدهور الوضع الاقتصادي في الصومال بسبب الأعباء التي فرضتها الحرب وتدفّق اللاجئين من منطقة أوغادين، وموافقة مقديشو على منح تسهيلات عسكرية للولايات المتحدة في المنطقة، في مقابل الحصول على دعمها في مواجهة أثيوبيا ومن ورائها السوفيات وكوبا.

وتوسّعت العمليّات العسكرية في صيف ١٩٨٢، ممّا دعا الرئيس سياد بري إلى طلب دعم عسكري أميركي مباشر ليتمكّن من الصمود في وجه «حلف وارسو الذي يوجههه الاتحاد السوفياتي» بحسب تعبيره. ولم تتأخر واشنطن عن تقديم هذا الدعم الذي بدأ يعطي ثماره منذ مطلع العام ١٩٨٣. وتعهّد الصومال بمواصلة دعمه لثوّار أريتريا وأوغادين.

المواجهة مع المعارضة

حاول الرئيس سياد بري أن يستوعب المعارضة الداخلية التي أخذت في التنامي وأصبحت تشكّل خطراً على نظامه. فأصدر عفواً سياسيّاً عن جميع المطلوبين الذين كانوا يتجمّعون في شمال البلاد وجعلوا منه قاعدة لتحرّكاتهم السياسية والعسكرية.

إلاّ أنّ المعارضة استمرّت، وإن يكن باتجاهات مختلفة لم تعرف الطريق إلى التوحّد، وهيمن عليها الانقسام بشكل دائم. فكانت «جبهة إنقاذ الصومال» و«الجبهة الوطنية الصومالية» و«جبهة تحرير الصومال الديموقراطي».

واستعمل الجيش لغة القمع، لا سيّما في إقليم هرجيزة حيث ضرب المتمرّدين على الحكم بعنف شديد ليخضعهم لسلطة الحكومة المركزية. لكن القمع لم يكن حلاً مناسباً أيضاً، واستمرّ الوضع في التدهور، وراحت سلطة الدولة تتقلّص عن المناطق شيئاً فشيئاً لمصلحة المعارضة. وفي صيف ١٩٩٠، كانت سلطة الحكومة قد تقلّصت إلى درجة أنّها لم تعد تسيطر سوى على العاصمة مقديشو وبعض الأحياء المجاورة لها.

قام الرئيس سياد بري بمحاولات يائسة لإيجاد تسوية تقبل بها المعارضة؛ فعيّن محمد هودلي مضر، وهو شمالي، رئيساً للحكومة. إلاّ أنّ الثوّار الذين ينتمون إلى «مؤتمر الصومال الموحّدة» كانوا قد توغّلوا في قلب العاصمة التي دارت فيها معارك عنيفة بين الموالاة والمعارضة استمرّت نحو شهرين وانتهت بسقوط القصر الرئاسي وفرار الرئيس الصومالي في أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٩١.

وعيّنت قيادة الثوّار علي مهدي محمد رئيساً لحكومة مؤقتة. غير أنّ

حركات المعارضة الأخرى لم تعترف بهذه الحكومة، واستمرّ القتال عنيفاً. وانقسمت البلاد إلى عشائر وقبائل متناحرة، ممّا استدعى تدخّلاً خارجيّاً، عربياً ودولياً، لوقف التدهور والتوصّل إلى تسوية يرضى بها الجميع. وفي النهاية، انعقد مؤتمر في جيبوتي بمشاركة خمس حركات، هي «الجبهة الديموقراطية للانقاذ الصومالية»، و«تحالف الصومال الديموقراطي» و«الحركة الديموقراطية الصومالية» و«الحركة الوطنية الصومالية» و«الجبهة الصومالية الموحّدة». وتمّ الاتفاق على تقاسم المسؤوليات في البلاد وعلى احتفاظ علي مهدي محمد بمنصبه لعامين.

لم ترض الحركات التي لم تشارك في المؤتمر بالاتفاق المذكور، واستمرّ الوضع في الصومال مضطرباً والمستقبل فيه غامضاً.

المراجع

١ ـ «٢١ دولة لأمة عربية واحدة»، جان فرنسوا نودينو، بيسان للتوزيع والنشر.

٢ ـ «المعجم التاريخي للبلدان والدول، مسعود خوند.

القسم الرابع

جيبوتي

امل عجيل

لمحة جغرافية

تقع جمهورية جيبوتي في شرق أفريقيا. يحدّها من الشرق خليج عدن، ومن الغرب أثيوبيا، ومن الشمال إريتريا، ومن الجنوب الصومال وأثيوبيا.

تبلغ مساحتها ٢٣,٢٠٠ كلم^{٢}، وعدد سكّانها نحو نصف مليون نسمة.

عاصمتها مدينة جيبوتي، وأبرز مدنها تاجورا، علي صبية وأبوك.

تمتدّ الصحراء على ٩٠٪ من أراضيها، وهي تتميّز بتعرّج سطحها ممّا يسمح بارتفاع جبل حتى علوّ ١٧٨٣م.

مناخها حار جداً، إذ تصل الحرارة أحياناً إلى ٥٥ درجة مئوية، بينما يبلغ معدّل الحرارة الدنيا ٢٥ درجة مئوية.

أمطارها قليلة جداً، لا تتعدّى ٢٧٥ ملم في السنة.

يرتكز الاقتصاد الوطني في البلاد على الزراعة والصناعة، على رغم كونهما قطاعين غير منتجين بالحجم المطلوب.

فالزراعة محدودة بسبب سيطرة المساحات الصحراوية الجافة على الأراضي. كما أنّ تربية الماشية والتي يعتمد عليها قسم كبير من السكّان فهي تشمل قطعاناً لا بأس بأعدادها من الأغنام والماعز.

أمّا الصناعة فهي بدائية وتقتصر على بعض الصناعات الغذائية التي تعتمد على الإنتاج الزراعي كمادّة أولية، كصناعة المشروبات ومشتقّات الحليب.

وتعتمد جيبوتي على مرفأ عاصمتها في المجال التجاري. وقد أقفل بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، ثمّ أُعيد فتحه بعد حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣.

في العهد القديم

منذ الأزمان الغابرة ارتبط تاريخ جيبوتي بتاريخ القرن الافريقي. وكان أول من تبادل تجارياً مع هذه المنطقة المصريون القدامى الذين كانوا يأخذون من هذا البلد الذهب والعبيد. وكان الفرعون بيبي الأول أول من أرسل اسطولاً بحرياً إلى هذه المنطقة في الألف الثالث قبل الميلاد.

وكان يطلق على جيبوتي اسم أراضي «عفر وعيسى» وهي كانت من أولى المناطق التي فتحها العرب في أفريقيا بين القرنين الثامن والعاشر. ولم يكتفِ العرب بغزوها، بل أقاموا فيها وأسسوا سلطنات وإمارات عربية، منها «إمارات عدل» التي يعتبرها الجيبوتيون إمارة أجدادهم.

في العصر الحديث

ظلّ القرن الأفريقي يعيش في وحدة تامة، منعزلاً عن العالم الخارجي لقرون طوال، إلى أن بدأت الدول الاستعمارية توجه أنظارها نحوه. غير أنّ المستعمرين الأوروبيين أدركوا بعدما درسوا هذه المنطقة أنهم أمام ممالك مفككة ومتناحرة. فالمناطق الواقعة على شاطىء البحر الأحمر كانت تحت نفوذ العثمانيين والمصريين. لكن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ جذب إليها المستعمرين الأوروبيين. وكانت بريطانيا قد أصبحت منذ ١٨١٥ قوّة بحرية عظمى لا منازع لها. فراحت تعظم سلطتها وتعززها في جنوب الجزيرة العربية، وخصوصاً في المناطق التي تؤدي إلى الهند. وفي سنة ١٨٤٠ اشترت جزيرة في جيبوتي بعد أن أرغمت المصريين على الانسحاب من المنطقة.

في سنة ١٨٣٩ حاولت فرنسا أن تشتري أرضاً على الساحل الشرقي لأفريقيا، غير أنها لم تحقق ذلك إلاّ سنة ١٨٦٢ عندما أقنعت زعماء «العفر»، وهم من «الدناقل»، ببيع ميناء «اوبوك» مع الأراضي المحيطة به.

في ذلك الوقت كانت مصر قد ضمّت السودان إليها ووصل نفوذها إلى إريتريا. وفي سنة ١٨٧١ كان النفوذ المصري قد شمل «تاحورة» و«زيلع» و«بريرة» في جيبوتي.

الاستعمار الفرنسي على جيبوتي

ما إن سقطت مصر بين يدي بريطانيا، حتى تهافتت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأثيوبيا وبلجيكا إلى اقتسام ممتلكاتها في أفريقيا. فكانت جيبوتي الحالية التي أصبحت مقراً للإدارة الاستعمارية.

وفي سنة ١٨٩٦ أطلق على المستعمرة اسم «الصومال الفرنسي» الذي ظلت تحمله حتى ٣ تموز (يوليو) ١٩٦٧ حين أصبح اسمها «الاقليم الفرنسي للعفر والعيسى».

وبدأ العمل في تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٧ لبناء سكة حديدية تربط بين جيبوتي وأديس أبابا، تملك حق احتكارها شركة فرنسية لمدة ٩٩ سنة. غير أنّ العمل في هذا المشروع لم يستمر لأن قبائل العيسى أدركت انها ستفقد قسماً كبيراً من أراضيها. وكذلك احتجت بريطانيا لأن هذه السكة ستضر بمصالحها. غير أنّ الشركة الفرنسية عانت من مشاكل مادية فسارعت بريطانيا إلى شراء اسهم فيها. وفي سنة ١٩٥٩، أبرمت فرنسا اتفاقاً مع اثيوبيا، فأصبحت الشركة اثيوبية ولكن برأس مال وإدارة مشتركين.

مرحلة ما قبل الاستقلال

نشطت بعد الحرب العالمية الثانية الحركة العمالية في الصومال الفرنسي وقد شجع ذلك ما تناهى إلى مسامع السكّان عن حركات النضال لنيل الإستقلال في الصومال البريطاني والصومال الايطالي. وأمام هذا النشاط السياسي وجدت فرنسا نفسها مضطرة للسماح بتشكيل نقابة تضم عمال البناء والسكة الحديدية، وكان أول من ترأسها محمود حربي الذي اسس سنة ١٩٤٨ «حزب الاتحاد الديموقراطي».

وفي آذار (مارس) ١٩٤٩ نالت الحركة النقابية بعض مطالبها إذ أصبح للصومال الفرنسي نظام نقدي خاص ومثل بنائب واحد في البرلمان الفرنسي. وفي سنة ١٩٥٧ عرف الصومال الفرنسي أول مجلس وطني، فكان محمود حربي أول المرشحين لرئاسة هذا المجلس. غير أنّ فرنسا ضغطت عليه للحد من نشاطه، فاضطر للسفر هو وبعض معاونيه إلى موغاديشو حيث أسس حزباً جديداً يهدف إلى توحيد الصومال الفرنسي والصومال الايطالي والصومال البريطاني. غير أنه لاقى حتفه اثناء رحلة له من جنيف إلى القاهرة سنة ١٩٦١، ويعتقد البعض أنّ «عصابة اليد الحمراء» الفرنسية كانت وراء هذه الحادثة.

وبعد أن نال الصومال الايطالي والصومال البريطاني استقلالهما سنة ١٩٦٠، اتبعت فرنسا في الصومال الفرنسي سياسة «فرق تسد». فراحت تزرع الحقد والخلافات بين قبائل العفر وقبائل العيسى.

وتكوّنت في هذه الفترة أحزاب سياسية عديدة منها «الاتحاد الوطني للاستقلال»، وهو عفري، وحزب «الرابطة الشعبية الافريقية للاستقلال»، وهي تضم العيسى والعفر، و«جبهة تحرير ساحل الصومال» و«جبهة تحرير جيبوتي» و«جبهة تحرير الساحل الغربي».

إستقلال جيبوتي

رأت فرنسا بعد سقوط نظام هيلاسيلاسي في اثيوبيا في ١٩٧٤ ان تجري استفتاء شعبياً وانتخابات في آذار (مارس) ١٩٧٥. وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٦ عقدت الاحزاب السياسية مؤتمراً أسفر عن رفض الاستعمار.

وجرى استفتاء في ٨ أيار (مايو) ١٩٧٧ تبعته انتخابات نيابية فاز بها حزب «الرابطة الشعبية» (عيسى) فتولى الحكم في البلاد بعد اعلان الاستقلال في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٧٧. ومن ثمّ انتخب رئيس هذا الحزب وهو حسني غوليد، رئيساً للجمهورية. وأبرمت هذه الجمهورية الفتية في ما بعد معاهدة دفاع عسكرية مع فرنسا، فضلاً عن الاتفاقيات الاقتصادية.

سنوات الاستقلال الأولى

منذ أول عهد الاستقلال عمد «العيسى» إلى إبعاد «العفر» عن مراكز السلطة في الحكم، فنتج عن هذه السياسة استقالة رئيس الوزراء احمد ديني وأربعة وزراء من «العفر». ولم يبق هذا الصراع بين «العفر» و«العيسى» سياسياً وحسب، لا بل تطوّر واتخذ شكلاً دموياً، فانتشرت أعمال العنف وتمّ اعتقال عدد كبير من الشبان «العفر».

ثمّ وجد الرئيس الجيبوتي نفسه مضطراً لتهدئة الوضع، فأطلق سراح المعتقلين وأعيد «العفر» إلى مناصبهم في الدولة، وشكلت حكومة جديدة تساوى فيها عدد «العفر» و«العيسى» برئاسة عبدالله كميل (عفري).

غير أنّ الخلاف ما لبث أن نشب بين الرئيس حسن غوليد ورئيس الوزراء. فحلّ غوليد الحكومة سنة ١٩٧٨ وكلف بركات حمادو (عفري) بتشكيل حكومة جديدة. إلاّ أنّ هذا الحل لم يهدّىء الوضع، فتفاقمت الأزمة إذ شعر العفريون انهم يتحوّلون إلى مواطنين من الدرجة الثانية.

وفي ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٨١ أعيد انتخاب حسني غوليد رئيساً للجمهورية وبقي بركات حمادو رئيساً للوزراء. وفي ٢٥ أيار (مايو) ١٩٨٢، عرفت البلاد أول انتخابات تشريعية.

منذ الاستقلال حتى ١٩٩٦

انتشار أعمال العنف بين العيسى والعفر

شهدت العاصمة جيبوتي أول أعمال العنف في ١٨ آذار (مارس) ١٩٨٧ فلاقى ١٢ شخصاً حتفهم في انفجار. وفي ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠ تكررت هذه الحادثة وأعلنت «حركة الشعبية الجيبوتية» مسؤوليتها عن عملية التفجير. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه سقط في كلا الحادثين ٦ فرنسيين.

وأصدرت منظمة العفو الدولية تقريراً جاء فيه انه في العامين ١٩٩٠ و١٩٩١ تعرّض ٣٠٠ شخص للتعذيب في جيبوتي.

ولم يتوقف العنف عند هذا الحد، بل استمرّ واتسع نطاقه عندما هاجمه مجموعة من العفر في ١٢ و١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) تاجورا ومناطق اخرى في الشمال. وفي ١٨ كانون الأول ارتكب الجيش الجيبوتي ما عرف «بمذبحة رحيتا» التي أودت بحياة ٥٤ شخصاً.

محاولة لحل الأزمة وتهدئة الأوضاع

إثر عمليات الإرهاب التي عرفتها البلاد، حاول الرئيس غوليد أن يهدّىء الأوضاع فأصدر عفواً عاماً في ٩ تموز (يوليو) ١٩٩٢. لكنه ما لبث أن أصدر حكماً بحق علي عارف، وهو من أهم أركان المعارضة، بعد خمسة أيام. وفي أيلول (سبتمبر) عدّل الدستور بحيث يسمح بالتعددية الحزبية، ثمّ جرت في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) انتخابات اشتراعية أدّت إلى فوز «التجمع الشعبي للتقدم» وهو الحزب الحاكم.

في ٧ أيار (مايو) ١٩٩٣ أُعيد انتخاب حسن غوليد للمرة الرابعة رئيساً

للجمهورية. وحضر هذه الانتخابات مراقبون يمثلون فرنسا وبريطانيا واوستراليا وايطاليا والامم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية.

وفي حزيران (يونيو) من السنة نفسها دعا الرئيس غوليد المعارضة إلى الحوار والنقاش. فجرى لقاء سري بين كل من وفدي «التجمع الشعبي للتقدم» و«جبهة اعادة الوحدة والديموقراطية» في أديس أبابا.

عودة عمليات العنف

في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣ عاد الصراع بين الجيش والقوّات المعارضة إلى أوجه. وأعلن الجيش في ٢ أيلول (سبتمبر): «أنّ القوّات الوطنية التي بسطت سيطرتها على كل شبر من تراب الوطن في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٩٣ تقوم بحملة تنظيف المناطق الشمالية من المعارضة المسلحة...». وأمام هذه المجازر، لجأت المعارضة إلى سفراء الولايات المتحدة وفرنسا واثيوبيا واريتريا والسودان، طالبت من هذه الدول ان تدخل لتوقف هذه المجازر التي مزق جيبوتي.

مفاوضات السلام

بدأت المفاوضات حول السلام بين الحكومة الجيبوتية والمعارضة المسلحة في اوائل شهر حزيران (يونيو) ١٩٩٤، تبعها بيان مشترك صدر في ٩ تموز (يوليو) جاء فيه أنّ الجولة الأخيرة للمفاوضات ستعقد في العاصمة جيبوتي في أيلول (يوليو) بحضور مراقبين دوليين. في هذا الوقت زار الرئيس الاثيوبي جيبوتي وعقد مع حكومتها اتفاقات عديدة. وفي ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤ وقع الامين العام للجناح المنشق عن «جبهة اعادة الوحدة والديموقراطية» «اتفاق سلام» مع وزير الداخلية الجيبوتي. وبرزت في هذه المرحلة الخلافات في وسط المعارضة إذ رفض احمد ديني رئيس «الجناح الرئيس» للجبهة الاتفاق الذي ابرم مع الحكومة.

حاولت الحكومة في ما بعد أن تستغل الاتفاق مع الجناح المنشق

للحصول على دعم مالي من الخارج، غير أنّ مساعيها باءت بالفشل، لأن الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد بينت أنّ الحرب لم تنته بعد.

الخلافات الحدودية

في نيسان (ابريل) ١٩٩٦ وقعت اشتباكات على الحدود الاريترية الجيبوتية حول «رأس ذميرة»، وهي منطقة من أهم المواقع الاستراتيجية على البحر الأحمر. وكانت اريتريا قد أصدرت خريطة جديدة ضمت بموجبها ١٨كلم من أراضي جيبوتي إليها. وبعد مباحثات بين وزراء خارجية البلدين توقفت هذه الاشتباكات.

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦ وقعت الحكومتان الجيبوتية والاثيوبية اتفاقات أمنية ودفاعية وتجارية.

من هو حسن غوليد ابتيدون؟

وُلد في العاصمة جيبوتي سنة ١٩١٦ من عائلة صومالية تنتمي إلى قبائل العيسى. سنة ١٩٥٠ استهل حياته السياسية إثر دعوته إلى ابقاء جيبوتي تحت الحكم الفرنسي. ولم يذهب ولاؤه لفرنسا سدى، إذ عيّنته الحكومة الفرنسية في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٨ رئيساً لمجلس الإدارة المحلية، غير أنه قدم استقالته بعد ٤ أشهر وسافر إلى فرنسا حيث انتخب نائباً عن جيبوتي. وفي سنة ١٩٦٣ أسس غوليد «الاتحاد الديموقراطي للعيسى» وحزب استمد تنظيمه من الحزب الديغولي. وفي السنة نفسها عيّن وزيراً للتعليم لكنه استقال سنة ١٩٦٧.

وفي سنة ١٩٧٢ أسس «الرابطة الشعبية الافريقية» التي تحوّلت سنة ١٩٧٥ إلى «الرابطة الشعبية الافريقية من أجل الاستقلال».

وسنة ١٩٧٧ انتخب حسن غوليد رئيساً للجمهورية. كانت سياسته موالية لفرنسا ووقف على الحياد في ما يتعلق بالنزاع الصومالي الاثيوبي.

في سنة ١٩٩٥ عانى من مشكلة صحية في رئتيه، فسافر إلى فرنسا لقضاء فترة من النقاهة. وعاد إلى جيبوتي في ٤ آذار (مارس) ١٩٩٦.

قبائل العفر

تعيش قبائل العفر المعروفة أيضاً تحت اسم الدناقل في شرق هضبة الحبشة وفي جيبوتي. وهي قبائل رحل تعيش على الرعي في منطقة صحراوية شبه قاحلة وشديدة الحرارة. أصلها عربي ويرجح انها جاءت من جنوب الجزيرة العربية ومن الحجاز. أما في ما يتعلق بتسمية «العفر» فهي مشتقة من «افير» أي بلاد الطيب والبخور.

يصل عدد العفر في اثيوبيا وجيبوتي وإريتريا إلى حوالي ربع مليون نسمة.

يتألف العفر من مجموعتان أساسيتين هما «الاسايمرة»، أي الحمر، وهم الأشراف؛ و«الادويمرة»، أي البيض، وهم العامة. يعتقد «الاسايمرة» انه ينحدرون من جد عربي من اليمن يدعى «حر الماس»، جاء إلى تاجورة وسيطر على الساحل الشرقي، وجاءت قبيلة الاسايمرة من جراء عمليات التزاوج مع السكّان المحليين. يمتلك «الحمر» الأراضي، ويمتلك «البيض» الماشية، فلا يحق لهم سوى الرعي في أراضي «الحمر».

أما «الحضارم» الذين يعيشون على طول الساحل وفي الداخل فهم يعتبرون انهم يتحدورن من جد عربي جاء إلى المنطقة من حضرموت. معظم «الحضارم» من الرعاة ويعتمدون على الأعراف القبلية.

كان للعفر في منتصف القرن السادس عشر سلطنة في أوسا في الحبشة. وظلت هذه السلطنة تتمتع باستقلال ذاتي بفضل الصحارى التي تحيط بها حتى سنة ١٨٩٥، عندما انهزم سكان أوسا أمام ملك الحبشة الثاني، فأجبروا على دفع جزية له. ولا تزال أوسا حتى اليوم سلطنة شبه مستقلة تابعة للحبشة.

المراجع

١ ـ «٢١ دولة لأمة عربية واحدة، جان فرنسوا نودينو»، بيسان للنشر والتوزيع.

٢ ـ «الموسوعة التاريخية للبلدان والدول»، مسعود خوند.

المحتويات

القسم الأول: القبائل العربية

القسم الثاني: موريتانيا

القسم الثالث: الصومال

القسم الرابع: جيبوتي